رشيد بوجدرة

معركة الزقاق

رواية

كتب أخرى للمؤلف

من أجل اغلاق نوافذ النوم (شعر . 1965)

الانكار (رواية . 1969)

الرعــن (رواية . 1972) .

يوميات فلسطينية (مذكرات . 1972)

الاراثة (رواية . 1975)

الحلزون العنيد (رواية . 1977)

ألف وعام من الحنين (رواية . 1979)

ضربة جزاء (رواية . 1981)

التفكــك (رواية . 1982)

لقــاح (شعر . 1983)

المرث (رواية . 1984)

ليليات امرأة آرق (رواية . 1985)

رقم النشر : 86/2239
الجزائر 1986

القسم الاول

صفراء فشهباء ثم صفراء : تنطلق الرافعة كالسهم ناطحة عرض السماء الزرقاء بجناحها العلوي ، بل وتشق طريقها سابحة فى كبد النسيج السمائي ، فكأني بها تفصله أشكالا مربعة وتفتقه مثلثات ومربعات وحلقات ، ونمسح الفضاء بجناحها المتحرك الآلي • صفراء فشهباء • صفراء فشهباء • تمر الآلة فى ذهاب وإياب متواصلين أمام الشمس المفلطحة فيما عضوها الراسخ يبقى جامدا ومكبلا ، بحيث أنه يفقد صفرته الطبيعية فيرسم ظلا يكاد يكون نهائيا على زجاج النافذة المغلوقة ، تلك التي تلعب دور الحاجز الرهيف بين العين والشمس • تتراكم تنف من الظلمات الطفيفة على الوجه فينبهر الرائي كذاك الذي يمرر خرقة من القطيفة على قسماته • واذا بالآلة (أو بالأحرى نصفها) يروح ويجيء فى حركة سرمدية متواصلة فيكتسح الجو المتجزىء حسبما يفرضه عليه القانون الهندسي والسلم الصوتي الذي يقترحه عزل المادة الزجاجية بمعدل لا يتجاوز ما هو تحت الصفر • صفراء • شهباء • ومن جديد صفراء • حتى اذا ما أغلقت العين بدت سوداء • وتسير الحركات متتالية ومتعاقبة على وقع وتيرة مملة ، ما عدا هذا النوع من الغمغمة المنبعثة من الهواء الخارجي فلا تصل — فى الحقيقة — الى المسامع : فما هي الا مجرد انطباعات ذهنية تذكر بحفيف الحرير اذا ما تلمسته الأصابع • ولا تنفك الرافعة وهي بين السهم والطير شكلا تتحرك فى صمت مذهل ، رغم تلك الخفخفة الموهومة (فكرة الطائر ؟) ، فتواصل تزحلقها

وانزلاقها ، متنقلة من الأفق الأزرق الى الأفق الأزرق ، ماسحة الفضاء في حركة هادئة هامدة . صفراء ... وكأنها تبحث عن أمر ما . غائصة في ميوعة مشبوه فيها . مزروعة في مادة غريبة . ثم

صفراء على غرار الخيول الواقفة خلف خليج الزقاق وهي تحمل فرسان الطليعة بما فيهم ضاربو الطبول ونافخو الأبواق وحاملوا الرايات . أو بالأحرى ، جلها . أما بقية الأحصنة فقد كانت عنابية اللون أو بنية . وعددها عشرة . وقد اصطفت كلها ما عدا فرس أحد قارعي الطبول وقد كان يتقدم الآخرين بخطوتين أو ثلاث خطوات . أما الآت الموسيقى (أي الأبواق والطبول) فقد كانت مختلفة الألوان والأشكال والأحجام . كذلك بالنسبة الى الرايات : فمنها المستطيل ومنها العريض ومنها الصغير ومنها الكبير . وتختلف ألوان الأعلام والرايات باختـلاف الراكب حاملها . فهناك الأحمر والأسود والأبيض والرمادي الخ . أما ملابس المقاتلين (فأين سلاحهم يا ترى ؟) فقد كانت أيضا مختلفة الألوان مثلها مثل عمامات أولئك الجنود المتشددين وهم على أهبة الاستعداد للانطلاق نحو سهل (فحص ؟) شريش والكل ينظر الى الأمام نحو الغرب فيخيل الى المتفرج أن أعينهم أصبحت حولاء وأن المصور هو هناك في الناحية الشمالية الغربيـة من الفرسان الذين يقفون على استعداد لمواجهة أمر ما ، من عداوة أو خطر . والغريب في الأمر أنهم كانوا كلهم مجردين من سلاحهم ، في حالة وقوف وترقب وانتظار . فصا متين . أما الأصفر فيطغى على غيره من الألوان التي تشتق منه باستثناء بعض البقع الحمراء القانية ، اللامعة ، هنا وهناك والمبعثرة في تلك المساحة الصغيرة حيث تركزت تلك الفرقة المكونة من عشرة فرسان راكبين خيولا أصيلة ، حاملين آلات طويلة ، عريضة ، لا علاقة لها لا من قريب

ولا من بعيد بأي نوع من أنواع الأسلحة قط . وعلى تكاثر الأصفر فان اللون الأحمر ـ الأخضر كان ملفتا للانظار أكثر من سواه ، لا لجاذبية فيه تجذب الأنظار ، بل لكون الفارس المتقدم كان يستطي حصانا أحمر البوص ويحمل طبلة مطلية هي أيضا باللون نفسه . صفراء ـ أيضا ـ كانت الخيول أو جلها . على أن هذه الألوان كلها بدت ـ بما فيها الأحمر والأصفر والأجاب ـ فاترة ، أكروماتية ، صبغية ، غير لونية . وكأنها غطست في المياه بعد نهاية عملية الرسم مباشرة . وما لم يكن هذا الانطباع خاطئا ، فيأتي الزمن ليلعب دوره فتكون الفتورة ناجمة عن قدم المنمنمة . من أين أتت ؟ أين هي ؟ وقد تكون مجرد تصور ذهني . مجر ..

ومنذ يوم وفاتها لم تفارقني رائحة الموت وقد اعتدت استنشاقها كلما دخلت المنزل القديم وحتى حجرتي تلك التي غشى طحلب التوتة جدارها الشرقي حيث النافذة الفريدة . ولعل رائحة الموت التي أدخرتها ، ليس فقط في غرفتها حيث السرير والستار الموصلي ، بل وفي الغرف الأخرى وحتى في البستان ، بل وأيضا داخل مخمل النسيج الذي منه فصلت ملابسي وبين مسام بشرتي وفي قعر أحلامي ؛ هي عبارة عن نوع من الرائحة الفاترة التي ليس لها أية خاصية وهي بالأحرى عبارة عن مزيج من الفطر المستنقعة ، والعرق العابق المتسرب من أجساد قراء القرآن ذوي الأجسام النحيفة والأسمال البالية والأصوات المتخنخنة ، والكافور الزافر من الكفن الأصفر (مثل لون الخيل المصطف أمام خليج الزقاق ؟) ، والجاوي المتعالي من الكانون المشحون فحما لهابا وهو يدور على راحة خالتي مامبة ، وهي احدى الخادمات المقربات منها والتي ما انفكت طيلة حياتها تكن لها ولكل خادماتها ـ كل محبة وود وصداقة (ولعل الأمر عائد الى كونها فقيرة الأصل

فلم تنس أن أباها كان يعمل مصباحيا بسيطا فى شركة الخطوط الحديدية ، فأخيها الوحيد، كذلك) والفرمول المتصاعد من الحمام العربي الكائن تحت المنزل حيث استحوذت الغسالات على جسمها النحيل ، ذي البشرة الشفافة والعيون التي انغلقت انغلاقا نهائيا والفم المشبم بكمامة ربطت من أسفل ذقنها حتى أعلى جمجمتها وكأنها رفضت السكوت عند مماتها ففغرت فاها بعد أن لازمت طيلة حياتها الصمت والسكوت فأرغمت الغسالات ، وبالتالي ، على شد اللجام (٧) بل على شد فمها باللجام لم تفارقني رائحة الموت منذ ذاك النهار الذي فارقت الحياة فيه وكأنها لاذت بالفرار من هذا المستنقع المخضوضر ذي الاروقة العميقة التي تدور حلزونيا حول تلك الحديقة التي لم تفتأ تلد الأوراق والأغصان والجذور والطحلب حتى أرغمت صاحب الدار على تسييج المنافذ كلها بسياج معدني . سرعان ما زاد من عتمة المنزل ، فأصبح جوه يشبه القبو الضخم الذي كان هو ••• حيث كان هو يقضي وقته متصدرا على أريكة عميقة تكاد تبتلع جسمه الصغير وقامته القصيرة فيجلس هكذا على عرشه وراء مكتب عتيق، مصدنف من خشب الزيتون وقد أصبح هو أيضا شبحا جنائزيا فقد كل شيء عدا وقاره وهيمنته وقد كان يستعملهما فى تسيير مئات العمال المساكين الراتعين داخل ذلك القبو الضخم حيث رائحة الموت (موتها هي) ما انفكت تتابعني ، تطاردني بعتمتها وطحلبها ومفهومها المجرد الرهيب •

شيء ما معتم بني أصفر مدم • سماء نحاسية • نيران متلاهمة صوب الأفق • شظايا متفرقعة فى الأجواء • انعكاسات الحرائق البرتقالية على جوانب الخيل المتصافنة المتزمهرة • أعين النسوة المتزائغة الخارجة من محاجرها الجاحظة والهاربات (النسوة)

الجارات أبناءهن المزبدة أفواههم . من أين هذا الكتاب ؟ انه
كتاب نصوص الترجمة المكتظ صورا ومنمنمات . فأترجمها حرفيا
دونما اللجوء الى القاموس داخل القبو حيث يسيطر هو (أبي)
علي وعلى العمال وعلى الوضع وعلى عمليات السوق المالية ويرفض
أن الجأ الى القاموس : ترجم . هل أنت حمار فتستعين بالقاموس ؟
أترجم ترجمة حرفية فيقعر داره حيث تطاردني رائحة الموت ، رائحة
موتها هي (أمي) ورائحة الاموات القوطة والفرنجة والجلالقة .
وتختلط الروائح ويختلط الأموات . ما علاقتها بهؤلاء الافرنج ؟
لا أتلفظ بالسؤال وأتركه يبربر يزهو فيقبض في النهاية على كتاب
الترجمة ويضع نظاراته ويقرأ العنوان : طارق بن زياد في فتح
الأندلس . وأجاز طارق بن زياد البحر سنة اثنتين وتسعين من
الهجرة باذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثمائة من العرب
وانتهب معهم من البربر زهاء عشرة آلاف فصيرهم عساكر ونزل
بهم جبل الفتح فسمي جبل طارق به ، وأداروا الأسوار علـى
أنفسهم للتحصين . وبلغ الخبر لردريق فنهض اليهم يجر أمـم
الأعاجم وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين ألفا فالتقوا بفحص
شريس فهزمه اليه ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم . وكتب طارق
الى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم فحركته الغيرة ، وكتب
الى طارق يتوعده بأنه يتوغل بغير اذنه ، ويأمره أن لا يتجاوز
مكانه حتى يلحق به ، واستخلف على القيروان ولده عبد الله .
وخرج معه حسين بن أبي عبد الله المهدي الفهري . ونهض من
القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم من وجوه
العرب والموالي وعرفاء البربر ، ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة

والجزيرة الخضراء فأجاز الى الأندلس وتلقاه طارق بن زياد وانقاد
واتبع ، وتمم موسى الفتح وتوغل فى الأندلس الى البرشلونة فى
جهة الشرق ، وأربونة فى الجوف وصنم قادش فى الغرب ودوخ
أقطارها وجمع غنائمها وارتحل طارق الى الشرق سنة ست بعدها
بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهر •
يقال انه كان من جملتها ثلاثون ألف فارس من السبي • يقول
ترجم يا حمار • وأجاز طارق بن زياد البحر سنة اثنتين وتسعين :
أجاز Prit طارق بن زياد Tarek Ibn Ziad طبعا لا جدوى
من ترجمة هذا يا حمار البحر La mer سنة اثنتين وتسعين
En l'an quatre vingt douze من الهجرة De l'Hégire.
pas besoin de ça non plus tu n'as ترجمته باذن أميره
موسى بن نصير : باذن : Avec l'assentiment لا Avec
l'Autorisation أميره موسى بن نصير De son chef لا De son prince
يا حمار • أنا أعرف أنك لا تعطي أي قيمة لهذه الأمور لا تعرف
العربية ولا الفرنسية حتى شيء الا الكسل أنت أكبر
عدوك هو العمل أما التاريخ وكيف فتحوا المسلمين الأندلس
ما شي سوقك • سبة والقات حدورة الله عليك يا سيدي الطول
والخسارة كسلوم النصارى ••• زيد تابع اقرأ بقية النص • أتذكر
رائحتها وهي تنظر من وراء السياج حيث الوردة فار هيجانها
وزهورها بهتت ألوانها • فى نحو ثلاثمائة من العرب وانتهب معهم
من البربر زهاء عشرة آلاف • رائحة المنزل يوم كفنوها أتركه
يترجم • أسكت • ينتظر قليلا ثم يستأنف الترجمة الحرفية فى نحو
ثلاثمائة من العرب Accompagné de quelques trois cents arabes
ثم يستدرك الأمر فيفهم أني أتماطل : تتمسخر بي آه لا اتضحك
لا اتبكي كزير المتكي •

(وأنا ما أرد عليه خليه يعوم فى زيتو سلوم انصارى أنا ؟
الترجمة الحرفية بليدة الاستاذ لا يقبل استعمالها هذا مبدأ ريحة
أمي عندما تغسل شعرها بالغسول النهار اللي غسلوها هل
غسلولها شعرها بالغسول المرقد فى ماء العطرشية ؟ لا أتذكر كل
الروائح أما رائحة الغسول المعطرش ما أنساها الحمار الترجمة
الحرفية : يعوم فى زيتو كيف يترجم أبي هذه الجملة ؟ لا يمكن
حتى اللهجات لها عبقريتها يعوم فى زيتو دائما متقلب الأطوار حوتة
مطلية بالصابون ما يخاف الا من عمتي فاطمة ومن قمر زوجته
الثالثة يعوم فى زيتو حوتة مطلية بالصابون حوتة مقلية بالزيت عوم
فى زيتك وخليني انعوم بحري هنا أيضا الترجمة صعبة واش
دخلو فى أموري المدرسية ؟ فقط لأنه يعشق عملية الترجمة
ونصوص ابن خلدون حول فتح الأندلس والرياضيات
($x^3 + 3x^2 - 3x - 1 = 0$) لو أقول له بغتة ليأكلنك
حوت كبير فنتخلص منك ... الحوت بالدارجة والحوت
بالفصحى ...)

كذلك العم حسين قهره ببلاهته وصمته . يفعل ما يشاء .
وعندما يأتي الى المنزل بغية التجسس يقول لنا مسكين أبوكم
يعني خوية حسان لم يسعفه الحظ مع النساء أما أنا فالحمد لله
وردة أعز ما لدي فى هذه الدنيا امرأة وفحلة . بالفعل كان يموت
من حبها على الرغم من أنه طلقها بعد ستة أشهر من زواجهما .
ورجعت نانا ، كما كان يسميها لتدليلها ، الى منزل أبيها وهي حامل
بابنة عمي دليلة . ثم تزوج عليها العم حسين بعد فترة وجيزة .
لكنه سرعان ما طلق الزوجة الثانية وطالب باسترجاع زوجته الأولى،
أي وردة الملقبة بنانا . ومنذ ذلك الحين راح الرجل يغوص فى
بحر العشق الزوجي . فصار متكلفا . متساوما . بليدا . فيرسل

عشية كل يوم الى زوجته باقة من الياسمين ، يحملها اليها أحد أبنائها • رائعة الطلعة والجمال • أنثوية المزاج • غنوجة • مغناجة • ترفة • متأنقة • هل كانت أمي تغار منها ؟ لست أدري •

(وأيضا : فى احدى الأيام الماضية بعد بضعة أيام مضت ، بضعة أيام فقط ، كان العم حسين واقفا فى وسط الشارع وكأنه لا يعرف الا هذه الوقفة منذ بداية التاريخ وقد بدأ يشيخ بسرعة • كان واقفا هكذا فى مفترق الطرق بقامته الطويلة ووجهه الذي فقد جماله المعهود بسبب مرض القلب الذي أصيب به منذ بضعة سنوات ، فأصبحت عيناه تحملقان هكذا ببلاهة وسذاجة • لقد فقد الرجل من أبهته وعنجهيته فتقلصت تفاصيل وجهه وتجعدت قسماته ويبس جسمه فأصبح عنقه يسبح فى طوق قميصه من فرط ما هزل وقد برزت الآن ياقته فكانت عريضة ، فضفاضة ، لا حد لها ، وهي عبارة عن اسطوانة من الورق المقوى والمنشى ، يبرز من خلالها عنق متكمش يشبه أعناق السلاحف اذا ما تطاولت فأخرجت رؤوسها من ذبالها • وقد كان عنقه رمادي اللون ، ممخورا بعارضات متقاطعة ، مشرئبا من خلال أكتافه وجسده ، وقد أصبح عبارة عن كدس رخو من العضلات والقشور الذابلة ، الرثة والشارات المتلاشية • لم يكن له ــ هذا الكدس ــ ما يمكنه من الوقوف الا ثيابه ، وقد كانت عيناه الرمضتان تحملقان فى وجهي وتتجسسان على أدنى ردة فعل كان من المتوقع أن أظهرها أو على أدنى حركة تصدر من عيني • تحاولان مراجعتي بتلك الخسة نفسها وذاك المكر المتردد المتخوف الشرير الماكر المغرض المعصوب الــ • فيبدو لي وهو على هذه الحالة وكأنه يتحدث فى آن واحد بفمه وعينيه على السواء ، أي بطريقة متوازية أو ــ بالأحرى ــ كأن فمه ينطق دونما علاقة بباقي الوجه المخضب شاربه بتبغين يتقزز

منه كل من نظر اليه ، وتحت الشارب القذر الملوث بشتى البقايا المشبوه فيها ، شفتان لا تتوقفان عن الكلام والحركة والتمتمة . قائلا (العم حسين) مسكين أبوكم لم يسعفه الحظ مع النساء انه لساذج ضعيف معهن ... ثم يتوقف من جديد عن التكلم والثرثرة وكأنه ينتظر جوابا مني أو تعليقا أو ردة فعل أو مجرد كلمات أتفوه بها لا لشيء الا لاخراجه من هذا الاحراج الذي سقط فيه ، أي شفقة به ورحمة ، فيما راحت عيناه تحملقان وترمشان فلا تتوقفان عن الحركة وتتابعان تفحصهما وتشخيصهما بطريقة خبيثة ، ماكرة ، منافقة . ثم يستدرك الرجل نفسه فجأة ويستطرد ـ من جديد ـ في البغبغة فيأتيني صوته وكأنه نابع من قاع العالم ، يعيد الكرة اذن . متعثرا . متكلفا . متلجلجا . لم أرد عليه . أتركه يسبح في بحر جمله وكلماته وحروفه ولثلثته بدون أن أستمع اليه . يأتيني صوته من قاع العالم . من وراء ما وراء الوراء . أحاول وهو في هذيانه المتواصل (مسكين أبوكم ...) أن أنظر الى الساعة من وراء كتفيه ، أي الساعة الجدارية المعلقة فوق بوابة محطة القطار . فاذا به يفهم مقصدي فيتصدى لي . فيباغتني . فيتطاول ويتنافخ حتى يقف حائلا بيني وبينها . يقف حاجزا منيعا يمانعني من رؤية ميناء الساعة الضخمة والاطلاع على الوقت ، فأتدفق منه . لقد جعل من رأسه النحيل ، وكأنه رأس دودة ضخمة ، حاجزا بيني وبين عقارب الساعة ، وذلك بسرعة ليس من بعدها سرعة ، أي بأقل من لمح البصر . نكلة . أو لعله أراد فقط الاستهزاء بي أو استفزازي استفزازا ليس الا . ومن يدري ؟ انه لداهية ! انه في أمور المراوغة والمماطلة والتملق ؛ لعبقري حقا . له خدان من ورق القضيم الرث . واذا بي أقول فجأة علي أن ... آخذ بيده فأقبض عليها فأصافحه . لكن عبثا .

فانها تنزلق مني انزلاقا ... أتذكر دروس الترجمة فى القبو المخضوضر ، المعتم . حوتة مطلية بالصابون . ترجم هذه الجملة يا ولد . ترجم وذلك الى كل لغات العالم . عليك بحل هذه المعادلة بسرعة يا صبي تنزلق ! $x^3 + 3x^2 - 3x - 1 = 0$ ، تنزلق، يد العم حسين مني اذن . أعيد الكرة لاجئا الى شيء من العنف فأحس بنتاءة عظامه . لا حوت ولا صابون . بل ، بالعكس ، شيء صلب . أحس بعظامه البارزه القديمة الدبقة تتكمش على يدي وتضغط عليها بدون أن يتوقف هو عن الكلام وأنا عن محاولاتي للتخلص منه . لا يكف عن استراق النظر الي معتذرا ، مرتبكا ، على أهبة الاستعداد للركض ورائي فيما لو تركته وانصرفت عنه . مسكين أبوك . انه صاحب أطوار وأزوار أبوك . لكنه لم يسعفه الحظ . لا ، انه مغفل أبوك ... أما أنا ونانا . أراه يفلت العنان لنفسه مرة أخرى ، لما وجد عندي من تردد واحتيار أمام هذا التعنت وسوء الأدب . لقد نسي الرجل نفسه . ولم يعد يتحكم فى زمام أموره وسيلان كلامه . لم يسعفه الحظ . واذا به يترك العنان لنفسه تركا مطلقا ، وقد كان قد كبتها خوفا مني فامتنع عن الضحك والازدراء دقائق معدودة ، أي منذ لحظة اصطدامي به على حافة الطريق فى وسط المدينة ، وبالضبط أمام المدخل الرئيسي لمحطة القطار . يفلت العنان لنفسه ، فيغرق فى الضحك مقهقها ، متلاعبا ، منتصرا ، مبرزا أسنانه المزنجرة العفنة المعدودة . واذا بي أتلعثم فى الكلام . أرتبك فى الصمت . لم أعد أعرف كيف أعامله وكيف أتخلص منه . أشعر به كأنه على وشك أن ينتصر فى هذه المعركة المضمرة. الله يسامحو حسونة أخي ! وفجأة ينفذ صبري . أقول أستأذنك عمي الحسين ، وفى صوتي بحة العنف، المكبوت . واذا به ينتفض

مرتجفا . مبرزا خوفه وقد كنت على وشك مغادرته • أستأذنك ••• خلينا انشفوك • ويبقى هو وحده فاغرا فــاه الأدرد • مبهوتا • فيعود الى عزلته الأساسية تلك التي أخرجته منها منذ ما لا يقل عن نصف ساعة • ولم يعد الآن يحاول ولو اخفاء ذعره واضطرابه وقلقه • الى اللقاء فى ساعة خير ••• أقول متهكما الى اشعار لاحق كما يقول الاداريون • لا يفهم لكلامي أي معنى • مذعورا • مبهورا • مبهوتا • فيوافق فى الأخير على اقتلاع يدي من قبضته العضمية • فأعود الى الوراء ، أرجـع القهقري وأبتعد بسرعة كبرى قبل أن يعيد هو الكرة ويباغتني من جديد ويجبرني على الاستماع الى تهكماتــه واسهالاتــه الكلامية • وبعد ابتعادي عنه بضعة أمتار وجعلي بيني وبينــه مسافة محترمة ، ألتفت اليه فأشير نحوه باليد ، مشهرا اياها ، ملوحا بها ، مستهترا به ، ضاحكا منه ، وفى سريرتي مرددا الحمار ! الحمار ! يا له من أبله ماكر ! أما هو فيقف فى المكان نفسه ، على حافة الطريق الغاصة بالخلق ، ثابتا كالوتد . فيظهر لي اذاك بأسماله الفظيعة وهزالة جسمه ، مثل ذاك الفزاع الذي كنت ــ صغيرا ــ أضعه فى قمة التوتة خاصة أثناء موسم تربية دود القز ، فيتسنى لي اطعامه بأفخر أوراق التوت فى الحي كله لأن التوتة • أما هو فقد وقف ــ اذن ــ فى المكان نفسه ، ثابتا كالوتد ، شبيها بفزاع رهيب • صــامدا • مهملا • متروكا • حقيرا • مشفقا • مغروسا فى عزلته الأبدية ، غارقا فى ثيابه المتعبة ، مجعد الوجه . تعيس المظهر وقد أخذت أقراص الشمس المتحركــة وحلقات الضوء الملتوية تتعاكس ، من خلال أوراق شجر التوت ، على وجهه فتبقعه بقعا بقعا : وعلى جسمه فتفعل به ما بوجهه فعلت ، وعلى ثيابه التي أصبــح الآن يسبــح فيهــا لشــدة

هزالته . والى الوراء ـ دائما ـ الفماشة الخلفية العمرانية السمات نفسها بحركتها الدوؤبة وحيوتها الصاخبة وهندستها المتراصة والمبقعة هي أيضا . ومن بعيد : وجهه العبوس ، المتجمد ، المحروم المنذهل ، الأدهش ، الأبهت .)

صفراء فشهباء عند مرورها (الرافعة) أمام قرص الشمس المفلطح تفلطحا أكثر مما اعتادت العين على رؤيته طبيعيا ؛ ولعل لأمر عائد الى تقوس زجاج النافذة وقد ظهرت من خلالها ورشة البناء الضخمة التي لا يرى منها الا رافعتها اذ أن المكان الذي يقف فيه المشاهد هو فى الطابق الأعلى من العمارة ، أي فى الطابق العاشر ، فيما لا يتجاوز هيكل الورشة ـ والأعمال فى الطور الذي بلغته من الانجاز ـ الطابقين . فلا يمكن والحالة هذه رؤية العمال وتفقد حالة البناء الا اذا أطل ـ ولو من خلف زجاج النافذة ـ وانحنى بعض الشيء ، زاغيا بعينيه نحو الأسفل فى حركة تتطلب شيئا من الجهد . أما الرافعات الصفراء فمن الأيسر مشاهدتها وكثيرا ما تمر ، أو أعضاؤها المتحركة على الأقل ، تمر بالقرب من النافذة حتى أن ظلها يكاد يرسم شطبا على وجه المشاهد الجالس وراء مكتبه ، فيبقع الظل يديه ووجهه. وجزءا من نصفه الأعلى ، وذلك حسب مدار الشمس والتواقيت المختلفة . ولعل مشهد الرافعات الصفراء التي تتشهب بعض الشيء عند مرورها بالقرب من الشمس اذن يترك مسحة من الحرمان مما لا ينقص شيئا من جمال الرافعات نفسها وهى تسبح فى الفضاء كالعصافير الضخمة التي لبثت فقط تتباطأ متمايلة ، حذرة ، متحذرة ، بل تتلاعب وتراوغ العصافير الحقيقية ، فتدخل فيها الذعر ، خاصة قبيل الغروب وهى الى أوكارها عائدة ، وذلك بطريقة منهجية أساسها التكرار والغريزة ،

مما يجعلها تبدو لمن يدقق في مشاهدتها ، متكلفة بعض الشيء ــ أو بالأحرى ــ متسرنمة ، متقاطعة الحركة ، فتنظمها بطريقــة تكاد تكون آلية ، فتوحي هكذا لمن ينظر اليها (الطيور) وهي خارجة من أوكارها أو اليها عائدة ، بأنها ليست فقط متكلفة ، متثاقلة ، متفصلة ، متثممة ، متمفصلة ، متفاصلة ، متفككة الخ .. بل وأنها (أيضا) من الورق المقوي (مثل عنق العم حسين ؟)

فتأتي عندها كل حركاتها غريبة ، خاصة وأن كل هذا التشوية ، هو مضحك وبهلواني بعض الشيء . ولعل هذا الانطباع يقوي اذا ما قارن الشخص ــ عن غير وعي ــ رشاقة الزرافات (أي الحاملات والرافعات) برعونة الطيور التي تبقى هكذا صعبة المنال ، بعيدة المخرج . فيما يظن المشاهد أن الرافعــات يسير الحصول عليها وأنه قادر على مسها ، أو بالأحرى ، على الاقتراب منها اذا ما مرت بجانب النافذة فتغطي الشمس بضعة ثوان ، طابعة على وجهه ظلا رهيفا لا يشعر به في الواقع لكنه يحدسه بسهولة تامة كملمس قماش قطيفي النعومة . واذا الرافعة القريبة من النافذة تنطلق كالسهم ناطحة عرض السماء ، على أن حركتها البطيئة توحي بأن السهم ثابت لا يتحرك (مثله مثل العم حسين اذا وقف على رصيف الشارع وكأنه قد ألبس ــ نكلة ــ ثوبا باليا فتحول الى فزاع مخيف (؟)) ؛ ولم يكن كل هذا مجرد خداع بصري ؛ الأمر الذي لا يمنع الرافعة ؛ أو ــ على الأصح ــ عضوها المتحرك من شق السماء شقا غير مبالية بالعصــافير المعتوهة ، فتكتسح الجو الذي راح ينجزأ حسبما يفرضه عليه القانون الهندسي لاطار النافذة المتكون من زجــاج وفولاذ . وتمشيا مع السجل الصوتي الذي يبقى رغم ضوضاء الورشة . تحت الصفر . خط أصفر مخدد (مخضب ؟) بسمرة فاتحة

(Beige ?) متغيمة بعض الشيء ••• كأنه (الخط الأصفر) قد يقع بسقوط قطرة من الزيت على سطحه • أما الورشة نفسها فيمكن رؤيتها من المكان الذي يقوم فيه ، وسط الحجرة ، وراء المكتب • كما لا يمكن سماع أية ضجة أو أي ضجيج للعمال هناك ، أو الذي يمكنه ـ بمعنى أدق ـ تصور حركاتهم وملابسهم وأدواتهم وخاصة : أرصوصاتهم البراقة ذات الألوان المختلفة • خط أصفر • لقد توقفت الآن الرافعة عن التنقل من مكان الشرق الى الغرب فمكثت هكذا ثابتة كالسهم • عندها اكتشف للمرة الأولى كلمة (Potain) مكتوبة بحروف بيضاء على خلفية صفراء ، على الرغم من أنه كان يشغل الغرفة نفسها ويرى الرافعة نفسها من خلال النافذة عينها وذلك منذ أكثر من سنة ، أي منذ أن بوشر بالعمل فى ورشة البناء هذه •

ثم هو وقد راح يتكلم بدون أي تبجح أو تمظهر : لقد دخلنا احدى الحانات التي اعتاد العسكر التردد اليها فتظاهرنا بالشرب ، متصنعين اللامبالاة والثمل ، بعد أن انزوينا فى أعماق الحانة ، مسترقين النظر الى مجموعة من العسكر التابعين للفيف الأجنبي وقد لعبت الخمر فى رؤوسهم الى حد فقدان التوازن وفقدان الحذر البسيط الذي كانوا على تلقينه مواظبين فى الثكنات منذ أن وصلوا الى هذا البلد غير الآمن ، لا بل منذ أن دخلوا هذه المدينة المتواضعة القائمة على الهضاب كقطعة من السكر (بياض بيوتها العربية ؟) • فيضيف قائلا وكأنه يعيش هذه الأحداث على أنه مر عليها ما ينيف عشرين عاما : واذ كانوا (الجنود) يتسللون الواحد تلو الآخر الى المرحاض ، كان عليهم ان يمروا على المجموعة المكونة منى ومن بعض الرفاق وان أذكر فلا أذكر كم كان عددهم بالضبط ، كانوا يمرون أمامنا الواحد بعد

الآخر ونحن نتصنع السكر ونتفاعل النشوة والاغتباط ، ندعوهم الى مائدتنا فيرفضون ، مما جعلنا نفهم أن السكر لم يأخذ منهم بعد مأخذه ، فنصبر وننظر اليهم خلسة وهم يتقارعون الكؤوس فنستمع الى محادثاتهم وهي عبارة عن خليط من اللغات المختلفة ، واذا بأحدهم يمر بجانب مائدتنا فى طريقه الى دورة المياه (كانت صغيرة وقذرة للغاية الى حد أن الزبائن اعتادوا أن يشخوا على الجدران الدبقة عوضا عن أن يبولوا فى الجردل من النمط التركي وقد كان المرحاض مجهزا به ، على أن الناس فى الحقيقة لم تعد تفرق ما بين الحيطان والجهاز الصحي نفسه لكثرة ما اكتساه القلح والعفونة والنجاسة ، خاصة وأن الجدران كلها قد اكتسحتها عشرات الكلمات المنقوشة وهي عبارة عن خليط من الشعارات السياسية والرياضية وحتى ، فى بعض الأحيان ، الغرامية :

W. M.O.C. F.L.N. Vaincra ! Jacqueline où es-tu chérie ?

وغيرها من الكتابات الأخرى ، وكأن كل هذه الأيدي التي نقشت هذه الحروف (لم يعد فى الامكان كتابة أي شيء بأي قلم أو سيالة ، لفرط ما كانت الرطوبة المسيطرة على المادة شديدة) قد خلفت هي أيضا آثارا للوضر السميك الثخن المائع ، وكأنها (الأيدي) اجتهدت ما فى وسعها لتترك للأجيال التالية ليس فقط آثارا عما كان يساورها فى ذلك العهد بالذات ، بل مجموعة من الحفريات الحقيقية الفائضة عما هو مخف من قلق وطموح وازدراء وسمو الخ) فنربت على كتفه دلالة منا على مودتنا ولكنه يبقى على الرغم من ذلك متحذرا وعلى استعداد لاشهار مسدسه كالبرق ، وذلك على الرغم من السكر الذي راح يغشي عينيه ، فيطلق النار علينا ، بدون تردد أو ندم أو شعور بالذنب أو أي شيء آخر من هذا القبيل .

كان له القرار يقول بعض الكلام حين لمحه يدنو وينفـخ فى
سماق اللوح يفرش له الحصير يصوغ كفيه من رنين الحرف
كانت الحرب كانت الحرب أين طفولته اختبأت وكيف يقص عن
غسق يصاحبه الى باب الكتاب دخل الجامع السفلي عند الصحن
كان الضوء منحدرا وجلبابه يلف الركبتين لمحه يختار له قصبا
يقول أكتب كتب الحروف والجروح والأمـوات والمذبوحين
والكلمات المنقوشة على الجدران وحتى على سطح منزله W. F.L.N.
يقول أكتب كتب شعارا ثم انصرف لم ينس حنـين أصابعـه
الملوثة بالطباشير الصفراء بصفرة الرافعة المغروسة رجلها فى أعماق
الأرض والماسح ذراعها آفاق السماء يقول أكتب كتب نوعية
الآلة (Potain) واسم مخترعها أو منجزها لم ينس رعشة
الأصابع ومسحوق الطباشير الأصفر على أصابعه يحاول ازالته
بمسحهم (الأصابع) على قماش بدلته المدرسية ، فأية خرقة
أخرى التاريخ يدخل بين طيات جسمه السمين الربيل الحادر
لم ينس معشر الزملاء ـ والحشورة تتوغل فى خلاياه يوما بعد
يوم ـ يرشقونه بوابل من السخريات يتهكمون هاتفين بـابا
سمينة بابا عجينة بوطي (Bud Abbot) طوطي يحرفون اسم
الممثل الهزلي الأمريكي ثم مشى لم ينس حنين أصابعه المغشاة
بغبرة الطباشير الصفراء لماذا نسي أن يقول سأذكر يوما هذا
الحنين الطفولي والمتعة الجامحة النابعة من أصل الخوف من
سراديبه يوم مشهود كذلك عند حادثة هزت الدنيا تظاهرت
النسوة يقذفن فى الهواء بقففهن المليئة خضراوات متعفنة يتركنها
تنطرح أرضا بعد شق الفضاء مثل سلاحف كبيرة فاترة فوق
رؤوس العساكر الأجانب يقول ذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين
تنفع المؤمن .. أينما كانوا سيذكر سيد الكلمات والشهوة الأخرى

على شفتيه يقول أكتب يكتب الحروف بسماق اللوح يصوغ
كفيه من رنين الحرف الحرب الشعار (W. F.L.N.) يفرش له
الحصير يتربع يتشمم أنامله المصفرة بسحوق الطباشير الملون
الشفق على باب الكتاب معلق متردد الدمع حابس بابا عجينة
بابا سمينة بوطي والكلمات المحرفة المنتة (Bud Abbot) يقول
له اجلس يبلع الدمعة المذروفة لا تغضب كان الضوء منحدرا
صاحب الكلمات يقرئه جوا غامضا نيرانا ملتهبة نساء مرجومة
فردوسات عسلية ... (وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة
من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان
والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوي
التيجان ...) اقرأ خطبة طارق المشهورة لا تغضب صاحب
والكلمات القرآنية نسي أصابعه بين الذهول والبهتان وأنامله
تحت الصقيع يقول أكتب صاحب الأمور يقرئه آيات مخيفة يصوغ
أذنيه من رنين الفاجعة أين أمه يقول لك القرار وأنت المبين أين
أمه طفولته انتسبت لمحنتها هذا الجسد الطفولي المتفائض سمنة
مرهقة زملاؤه لا يرحمونه بابا عجينة معمر بالطمينة وهذا عنفه
اقتربت منه النشوات وحاصرته الجدبات يكتبه (عنفه) فى
انغراس الشوق والصلصال والصمغ والدم والحمى والمستنقعات
أين أمه سيذكر سيد الكلمات يقرئه : ويسألونك عن المحيض
قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى
يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب
التوابين ويحب المتطهرين أين أمه طفولته انتسبت لمحنتها هو
المقصي من عتبات أبيه هو المصاب بالحشورة ويسألونك عن
المحيض أمه روت النساء يقذفن فى الهواء بقففهن المليئة خضراوات

متعفنة ويتركنها تنطرح أرضا بعد شق الفضاء مثل سلاحف كبيرة فاترة فوق رؤوس العساكر الفرنسيين معرفته جيدة بهندسة المدينة سوف يتذكرهم (العساكر) مشدوهين مرتعدين تحت لباب الخضر المنسحقة فوق رؤوسهم بائع الاسفنج التونسي يبكي وهو يرى ذاك الزيت ينزلق فوق أدمغتهم الجنود يسوتون احتراقا تحت وابل الزيت المغلى غلاه التونسي لقلاء الاسفنج الهش كان له القرار يقول هذه الحرب خوضها مريع حين لمحه فى الفجر القارس يدنو وينفخ فى سماق اللوح يصوغ كفيه من رنين الحرف كانت الحرب تفور ضفاف الرمال بالرؤوس التي قطعت غدرة أيام صالح باي واعتصامه وراء أسوار المدينة يقول أبوه كم يوما وما زال يذكرها فى متم الكهولة عندما حوصل روافد النهر التاريخي كم يوما دام احتصان صالح باي استدارت الأيام بحوادثها وضاقت بأحداثها كم جندا اصطحب طارق بن زياد الى خليج الزقاق قال صاحب الكلمة نحو ثلاثمائة من العرب وانتهب معهم من البربر زهاء عشرة آلاف ما زال يذكرها (المنمنمة) فى متم الصبا وتوالي التمهور هي اليوم ضاقت بأجداثها ودخلت مع الحريق ألسنة تتجول دارا فدارا وكل هفوات الأطلس انتقلت فى دمائه قرون رأى الغزاة يطوفون حواله كم عددهم هؤلاء الذين اصطحبوا لرذريك قائد القوطة والحلالقة والافرنجة فى مواجهة طارق بن زياد قرأ على المنمنمة رماة يحجون من كل فج ومج ما بينه وبينهم خندقان أو شاطئان بين طانجة والجزيرة الخضراء قال اقرأ كتابا نصا لابن خلدون كان عليه ترجمته الى لغة الافرنج وصاحب القرار لا يقدر على الصمود والصمت ترجمة حرفية انتقلت فى دمائه قرون رأى الغزاة يطوفون حول الجزيرة الخضراء وغزاة آخرون يحومون حول الجزائر أربعون ألف جندي قاموا لمقاومة طارق وموسى

تحدر من صلب المغرب رجل ملثم نيلي العينين هل الوشم ينفسخ
رأى المدينة غاضبة والنساء ويسألونك عن المحيض خرجن على
غير عادتهن فصلن حدود المساء بملاياتهن السوداء أجنحة الغربان
الحالكة عشرون ألف جندي حاصروا هذه المدينة فى عهد صالح
باي تعقبن (النساء) من مسها انتشرت فى البلاد صلاة الجنازة
لعل بائع الاسفنج التونسي بكي زيته المغلى يهدر هباء على
رؤوس القتلى طفل يلعب على أحد السطوح بقفص مليء بطيور
الكناريا الصفراء صفرة الطباشير كتب الشعارات الأولى على
سطح الدار وهو يبدأ عراكا طويلا مع جسمه المتشحم المتفايض
يمنة ويسرة مقدمة ومؤخرة هو المبلي بالنهم العصابي قال الطبيب
أنت حشور ياولد بابا عجينة وكال الطمينة تحريف اسم ممثل
ضخم فخم بوطي (Bud Abbot) بابا سمينة وكال الروينة
عراك طويل مع الجسم الى مدى عتبة الشباب وتتمة المراهقة
طفل صغير يلعب على سطح دار عربية يوم خرجت النساء الى
الشوارع يلعب بقفص مليء طيور الكناريا يعطي الاشارة
(مكرة ؟) لموسيقية المروضين أحسن ترويض بالتبول على
قبعات العساكر صلاة الجنازة وصلاة الغائب كان أخوه غائبا
رأى المدينة غاضبة والنساء خرجن على غير عادتهن فصلن حدود
الصباح بملاياتهن وحنين شعاراتهن كلام تخطفه الصمت تقاطر
ماء الكناريا الأصفر على العساكر فشهروا حرابهم وقطعوا
كل شيء يصادفونه قفف الخضر قفص الكناريا ماعون زيت
التونسي ورأس الطفل أيضا فصلوه عن جسده حنين كلام يخطفه
الصمت نامت رؤوس اليوم وقامت رؤوس سمع مواقعهم تتمازج
تتناسخ فاض الوشم على ركبتيه السمينتين رتق سرائر وجهه
صلاة الجنازة وصلاة الغائب يقول صاحب القرارات أخوك
انتجع جهات القرون ليأخذ منها أصابع طفل بدين بزرقة سلامياتها

وصفرة طباشيرها لنحت شعارات على أرضية سطح منزل عربي
Algérie Vaincra بلغة العدو نفسه كان له القرار يقول كلاما
سياسيا حين لمح الشيخ الضرير في قعر الكتاب يدنو وينفخ في
سماق اللوح يفرش له الحصير يصوع كفيه من رنين الحرب من
رنة الحرف كانت الحرب الفحشاء أين طفولته انتسبت لمحنتهــا
وعقدها هو المقصى من عتبات أترابه لكثرة سمنته وأهله لكثرة
تناقضاتهم قل هو أذى فكان هناك طفل يلعب على أحد السطوح
بقفص مليء طيور الكناريا يعطي الاشارة لعصافيره بالتبــول
الشرطة حاولت حصر المتمرد البارع في تعليم الموسيقى الطيور
الصفراء رفعت عقيرتها بالنشيد الوطني تعلمته عن ذلك الطفل
بحنكة بالغة ففصل العساكر رأس تربه عن جسده صلاة الجنازة
وصلاة الغائب نفس التوقيت ترقب الطفل وصول ناووس أخيه
ورفض الخروج من الميناء قبل وصوله صمم على انغراس اللوعة
الصامتة فرض نظاما غذائيا على نفسه لا يضحــك العساكــر
من سمنته والحرب ضاربة أطنابها تفور ضفاف الرمال بالرؤوس
قطعت غدرة وما زال يذكرها على رسومات الفاتحين (De Lacroix
Eugène) وجثث طيور الكناريا أيضا القفص تجزأ الى آلاف
الشظايا الشمس أيضا من خلال زجاج النافذة المقوس وهو من
ورائه كهلا عاملا جادا بينما الرافعات تحوم في الفضاء وتمزق
كل النسيج السمائي صفراء شهباء عند مرورها بقرص الشمس
ثم صفراء من جديد ولم يكتشف علامة صنعها الا بعد عدة
أشهر من بداية تشغيلها في الورشة المقابلة لنافذته Potain
صلاة الجنازة صلاة الغائب ترقب عدة أيام وصول التابوت رفض
أيضا وضعت جثته في صندوق مرصع ومشمع بطابع الجمرك
مغادرة الميناء قبل مجيء الجثة يتجزأ نهر التاريخ الــى زمنــين
اختارهما عن غير قصد الماقبل والمابعد لم يحتج لخارطة تروي له

كيف الماء البول الدم الجسم البوطي انفلج كغصن شجرة توت
حتى فاجأه أحد الكبار الموت لصيقا بالحال كانفلات الضوء وعجاج
الدود ووميض الجو يقول صاحب اللوح أكتب يكتب قرآنا
شعارات نحوا حسابا $x^3 + 3x^2 - 3x - 1 = 0$ هندسة صرفا ثم
قرآنا اعتزلوا النساء فى المحيض عم أسيدي يخاف على أمه يقول
لك القرار طفولتي اتسبت لمحنتها خضعت لقوانين الغدد
الدماعة منها والطملاخية والكظورية انبهرت بسجلات المعارف
واللغات Laudate pueri Nulla in Mundo pax Sincera in Furore

يقول صاحب القرار ترجم ! يترجم حرفيا :

Laudate :	ابتهجوا
Pueri :	يا أطفال
Nulla	ليس هنا أبدا
In	فى
Mundo :	العالم
Pax	سلم
Sincera :	نزيه
In	تحت :
Furore :	الغضب :

البحث عن فعل الجملة مأساة لا يمكنه الخروج منها
لكنه يعرف مكان الوصل بين هذه الجملة اللاتينية والغدة الدماعة
آين طفولته اختبأت وكيف يقص عن غسق اصطحبه الى باب
الكتاب يكتب صفراء فشهباء ومن ثم صفراء وتنطلق الرافعة
كالسهم لكنها تبدو ثابتة ...

ينزل الى الشارع ، بعد أن استقل المصعد ، ليشتري علبة سجائر ، وقد تعود اقتناءها من أحد الباعة المتجولين ، وجلهم من المراهقين العاطلين . لم يكن يرغب فى الخروج من العيادة فى الحقيقة لكنه أرغم على ذلك لافتقاره الى نصيبه اليومي من التبغ . تكاثر العمل عليه فى هذه الأيام ، فلم يجد لتفادي هذا الأمر سبيلا . فكر أنه لابد من التوقف عن التدخين . تذكر الأنظمة الغذائية التي كان يتبعها وهو طفل مصاب بمرض الحشورة العصابي . أراد أن يصمم على ذلك لكن عزيمته خانته مرة أخرى . تواعد على أن ينظر فى الأمر مليا فى فرصة أخرى . فما أن أشعل سيجارته الأولى حتى رفع رأسه الى السماء يشخص نافذة مكتبه وعن غير وعي أخذ يحسب عدد الطوابق 1،2،3،4،5،6،7،8،9،10 . كان يعمل فى الطابق العاشر والأخير من العمارة الكائنة مقابل الورشة التي فتحت أبوابها منذ سنة على وجه التقريب . حاول باستدارة رأسه حسب زاوية مقدارها 45 درجة ، أن يرى الرافعة التي كان يتابع تحركاتها يوميا . هل عندك علبة كبريت ؟ بحث المراهق داخل جيب سرواله الأيمن وأخرج علبة قذرة فقدمها له . أخذ طارق العلبة . ففتحها . فأخرج منها عودا . فأشعل سيجارته . فأغلق العلبة . فأعادها للبائع المتنقل . فقال الشاب : احتفظ بها ... لدى غيرها . فأراد طارق أن يلح عليه حتى يسترجع العلبة ، فعدل فى نهاية الأمر . شكرا لك . فاستنشق الهواء . فملأ رئتيه دخانا حالكا . فذرع بضعة خطوات . فرفع رأسه من جديد نحو النافذة . فرأى عدة رافعات معكوسة على صفيحتها . حاول تعدادها . عكف عن ذلك . فكر فى التوقف عن التدخين . خمن فى قضية زيارة

مدينة جبلطارق • تخلى عن هذه الفكرة بسرعة • قال هذا وسواس قديم • لابد من التخلص منه • تذكر يو مكان طفلا • ضحك من نفسه • رجع القهقري نحو عمله • قال هذه الأنظمة الغذائية آتية كلها من شر الناس الخناس الذي يسوس فى صدور الناس • دخل العمارة • وصل أمام المصعد • طلبه • ضغط على الناس • اشتعلت اشارة الصعود • دخل القفص الحديدي • رفع رأسه نحو العداد المضاء • أخذ يحسب • أو بالأحرى ، يقرأ الأعداد التي كانت ترتسم الواحد تلو الآخر على اللوحة الكهربائية فوق تاج الباب • 4،5،6 • توقف • عاتب نفسه • ما لي وهذا الوسواس التعدادي ثم من جديد 6،5،4،3 • التعداد التنازلي • انها مشكلة الأرقام والمعادلات الرياضية • قال أصبحت عندي بمثابة الهاجس • وقف المصعد • انفتح الباب • نزل • أو بالاحرى، خرج • وجد نفسه فى بهو ضخم لا يحتوي الا على باب واحد • كان باب المصحة • وقف أمامه • أشعل سيجارته التي بقيت منطفئة طيلة الصعود ولم تفارق فمه • استنشق نفحة دخان • تبادرت الى ذهنه مجموعة جبرية من الصنف الثالث : 0 = 1 – × 3 – 2 × 3 – 3 × أدخل يده اليمنى فى جيب سرواله • أخرج مفتاحا • وضع المفتاح فى القفل • أداره • فتح الباب • دفعه • دخل الى العيادة • أطفأ السيجارة فى منفضة وضعت على طاولة من الخشب الصلب ، تتصدر المدخل • اتجه نحو مكتبه • خرجت المرضة من غرفة مقابلة • قالت لقد حان موعد الزبون الأول • لنا عمل كثير اليوم • أ أدخله ؟ لم يرد عليها فى بادىء الأمر ، ثم أشار اليها أن تفعل • دخل قاعة الفحص بدون أن يغلق الباب وراءه • صفراء • شهباء • فصفراء من جديد • رجع الى الوراء • ومن جديد ساورته فكرتا التخلي عن التدخين نهائيا وقضاء العطلة المقبلة فى جبلطارق • فساورته

من ثم ذكريات طفولته أيام كان طفلا سمينا وقد قرر فى احدى الأيام اتباع قانون غذائي فلا يكون موضع سخرية من قبل الجنود الفرنسيين والحرب دائرة رحاها • يدخل عليه المريض الأول مصحوبا بالمرضة • يقول ماذا يؤلمنا اليوم • يسخر هو من جملته هذه • لماذا صيغة الجمع يا ترى ؟ يقول فى ذاته : أنا لا أتألم من شيء يذكر • لولا هذه السيجارة الملعونة • انني لمنقطع لا محالة عنها • صيغة الجمع هذه مهنية • ليس الا • عقدة أخرى كيف حالنا اليوم ؟ هذا الجمع لقيط ودنيء • لو علم جدي بذلك لضرب علي الحصار ولاذ بالمقاطعة • العم حسين مسكين • عكس جدي تماما • هذا الجمع لدنيء • الهاجس هو هو لا يتغير • لابد من نظام ما • اما الأكل واما السجاير • لم أشف بعد من طاعون عقدة السمنة هذه • لم تدم الا بضعة سنوات • بداية الحرب • لعله الخوف ؟ الغدة الصماغية • يوم جاء الجند فباغتونا • أنا وشمس الدين • قالت أمي جاؤوا على غرادة • ترجم ! ترجم ! هذا الانبهار أيضا • ما عدا الأرقام • عشقي للغات بما فيها اللهجات العامية (على غرادة) • والبربرية • كيف أحوالنا اليوم؟ ترفع الممرضة العجوز حاجبها الأيسر • لا ترضى عن هذه المعاملة • ترى فيها بعض السوقية • كل واحد فى مكانه • هذا أفضل • ترفع حاجبها • كأنه عقرب الساعة الجدارية وضع على وجه عبوس • هذا الجمع رديء على كل حال • صادفت السمنة التي لفت جسمي بداية الحرب • هل من علاقة هناك ؟ الغدد أمرها صعب • أشرت الى الممرضة بالخروج ارتفع حاجبها الآخر • فكأنها أصبحت ساعة جدارية قد توقفت عقاربها نهائيا • بعد ما التحقت الواحدة بالأخرى • قالت بصوت مرتفع • تحت أمرك • تؤمر يا بيك • قلت يا خسارة • كل هذه المسلسلات المصرية الرديئة سوف تحز عقل هذه العانس المسكينة •

ابتسم الزبون لدى سماعه جواب الممرضة • تغامزنا • لا بد من أنه واياي نفكر نفس التفكير • يوم افتحم الجند المنزل العائلي بغتة ، طلعوا الى السطح • قرأوا الشعارات المكتوبة بالطباشير الصفراء • كان شمس الدين يصغرني بما يناهز الأربع سنوات • العم حسين هو أبوه • كان على استعداد لأن يوشي (العم حسين) بنا • ما كان فى المنزل غيرنا من يقبل على كتابة مثل هذه الشعارات • الآخرون ؟ اختبأوا تحت الأسرة • أما أمي فقد كانت شجاعة • قالت وامبعد يقصونا روسنا • شمس الدين تفل على الضابط • صفعه هذا يمنة ويسرة • كان شمس الدين متعودا على الضرب المبرح • العم حسين يتفنن فى تعذيبه • أما صفعة الضابط فلم تؤلمه قط • حدق في الضابط فترة طويلة من الزمن • قال العسكري لو لم تكن طفلا صغيرا لقتلتك شر قتلة • أشهر مسدسه • لم يحرك ابن عمي الحسين ساكنا • يقول شمس الدين : كيف يصاب المرء بمرض الخوف يا ترى ؟ لو أصاب به أنا فأتخلص من هذه الشجاعة الخانقة ••• فأستريح شوية ••• قال أبوه : رأسه صلب لا يشق • كان ابنه يعصيه فى كل شاردة وواردة • يلتجيء الينا • يختبيء تحت فراش العمة فاطمة • تخرج الممرضة مغتاظة • معليش • حاضر • أنا منصرفة • وبعد أيام راح الشحم يكتسحني • تضخمت • هل هي الفاجعة ؟ أجبرونا على غسل الشعارات المكتوبة W. Le Peuple Algérien على أرضية السطح بالطباشير الصفراء • أنا وشمس الدين • كانت أمي تملأ الأسطل ماء ونحن نكنس ونحك ونمحو آثار الطباشير الصفراء • وكان الأب غائبا كعادته • والعم حسين يرتعد خوفا • يتلعثم فى كلامه Missieu... Missieu le Kobtan... وفى الغد أعدنا الكرة ، سرا ، بعد أن نامت العشيرة جميعا • استعملنا هذه المرة طباشير حمراء ، مضيفين الى العنف عنفا

آخر • أضفنا على الشعارات شعارات جديدة ما كنا لنجرأ على كتابتها من قبل • ومما أذكر أن شمس الدين راح يفتش فى القاموس باحثا • قلت لو قمنا بأخطاء لضحك منا الجنود فى المرة المقبلة • فحذار ! كتبنا شعارات جديدة إضافة على الشعارات القديمة • Abat La Fransse حتى أمي قالت حبيتو تباصيونا يا ولاد • من ترجم لها هذا الشعار ؟ احدى البنات • هذا أكيد • أما الذكور فقد امتنعوا عن الصعود الى السطح منذ أن جاء العسكر • انصرفت المرضة مجرجرة رجليها نكلة • قال الزبون لعلها تحضر دورا فى الأفلام المصرية عما قريب • قال فقهقه • حرام عليك انصحها يا أخي • اغتنمت الفرصة وهو ينزع ملابسه • اقتربت من النافذة • رأيت الرافعات الصفراء • انشرح لهذا المنظر صدري • قلت على منوال الزرافة والطير • الأبيل •

يقول بدون تبجح ولا غطرسة لقد قررنا ذبحهم بدون استشارة أحد • ما كنا لنعرف كيف نتصل بالمسؤولين • دخلنا الحانة • كانت غاصة بجنود اللفيف الأجنبي • تفاعلنا السكر • كنا جالسين بالقرب من المرحاض لكثرة ما ازدحمت الحانة بالزبائن • دخلت عدة مرات للتقيؤ ، تحاشيا أن يؤثر الخمر في • كانت جدرانها عفنة ، مهترئة • وكان المرحاض من الطراز التركي • الا أنه لم يعد يصلح لشيء • لقد اعتاد السكارى النبول على الحائط مباشرة • لربح الوقت أو بسبب فقدان البصيرة • غريبة حقا هذه التفاصيل • لم يرشح منها الا التافه • تراكم التماهات كما يقول كمال • وأغرب من هذا فان أغلبية الأشخاص الذين كانوا قد خططوا لهذه العملية ، والذين لا زالوا على قيد الحياة ، هم الآن من المترددين الى هذه الحانة • كان أكبرنا لا يتجاوز العشرين • لم تبق الا الجزئيات التي لا معنى ولا أهمية لها • كيف ذبحناهم ؟ كيف

توصلنا الى اخراجهم من الحانة ؟ نسيت التفاصيل • كان عددهم أربعة أو خمسة • وبعدها قامت القيامة وكانت الطامة الكبرى • لم نستشر أحدا • فكيف تمكنا من ذلك ونحن لا نعرف من أمور الثورة شيئا ؟ قلت هل تتذكر التاريخ بالضبط ؟ قال لا والله لا • في منتصف فيفري 1956 • يعني في البداية ؟ قال : أظن • كان ما كذبنيش ربي • خالتي باية خبتنا هذاك الليلة • أنا وأحد الرفقاء • الله يرحمها • خفت أنا أن تغرورق عيناي بالدموع • لقد قمنا بعمليتنا الشرسة في الساعة الحادية عشرة ليلا • وبعد نصف ساعة كانت الطامة الكبرى • لاحظت أنه كثيرا ما يستعمل أسلوبا قرآنيا • كانت ثقافته كتابية محضة • الكتاب بالقرب من الدار • دار جدي سابقا • استطرد وكأنه يتكلم الى نفسه • بدأ الليل يتساقط • ولم يكن المصباح قد أشعل بعد • لم أجرؤ أنا أيضا على انارته • قلت هو بحاجة الى أشباحه • حوايج داري دورو بي • كانت العمة فاطمة تسمي الأنس والجان : أمالي الدار • أهل البيت • تركت الأشباح تحيط به • ولعلي استحسنت عدم الانارة حتى اذا ما باغتتني عيناي فلن يستفيق هو لأمري • خرج الجنود المظليون الى المدينة بسياراتهم العسكرية ودباباتهم • أطلقوا النار على كل ما هب ودب • هكذا بطريقة عشوائية • فقتل الكثير • ونجونا نحن أعضاء المجموعة • اختبأت في داركم • كانت لي أمك سندا وعونا • ويا له من عون • مثلما كانت لما كنت أعمل في مخزن أبيك • أقضي سحابة أيامي في تسمير الصناديق الخشبية المملوءة بيضا وحوامض فأغلقها وأضع عليها الطابع الأحمر حاملا اسم العم حسان • لا زالت رائحة القراضة التي تستعمل لوقاية البيض من الضرر ، تلاحقني • وكذا رائحة الحبر • وكذا رائحة الحموضة المتعطنة وكان أبوك لا يرضى أن تلطخ أصابعي بالمداد •

فكان يزجرني زجرا • ثم يوسعني ضربا اذا ما تلطخت • ويضحك هو • أنا لم أره • لكنني كنت أسمع ضحكته ترن فى أذني رنا • نجونا كلنا • لكن عدد القتلى كان ضخما • وعنونت الجرائـد فى اليوم التالي أن الجيش الفرنسي قد أباد عصابة من الخارجين على القانون ابادة تامة • Un Groupe de Hors-la-loi Anéanti ! لم يقتلوا سوى الأبرياء العزل • فقراء من القوم • أما نحن فقد نجونا جميعا • لجأت الى أمك • خبأتني • لقد كانت ، الله يرحمها ، تخاف من العم حسين • أما أبوك فأنت عالم به • أنت تعرف • قلت : بدون تعليق • قال : ما هي أخباره ؟ قلت : على أحسن ما يرام • زرته فى بيته منذ شهر فقط • قال : سيعمر حتى المائة • قلت: هذا وارد جدا • قال : عمره الآن ؟ قلت : زهاء الثمانين • انه من مواليد 1905 • احدى وثمانون سنة بالضبط • ضحك فقال : كان غريب الأطوار ولكنني أقر له بالذكاء • انه لعلامة ! لو لم يتصرف مثلما تصرف مع أمك لكان ••• فقط تصرفه مع أمك • يا خسارة ••• التصرف الشنيع بعينه ، لكن لم يكن ليعي ما يفعل • قلت : هذا تبرير غير مقبول • أضاف : لكنه قهـر الفرنسيين • لولاه لما دخلنا نحن الأطفال المعمعمة • أتذكركـم مرة دخل السجن ؟ قلت بلى ••• لكن ••• قال : صحيح • لكن ! قلت : أتذكر تلك المنمنمة المعلقة عـلى جـدار مكتبـه فى المخزن ؟ قال : لا •• ممكن •• شيء غامض •• لا لا أظن • أنت تعرف ، ثقافتي محدودة • لم أكن لأهتم بتلك الأمور آنذاك • أما هو فهو راجل عالم حقيقة موش كيف أبوي عمك الحسين الله يرحم حتى هو • كان شريرا • كم عاث فينا جبروتا • قلت : لكن لم تنس ما حفظته من القرآن • تتحدث مثل شيخ الكتاب • ما أسمه ؟ مات بعد اندلاع المقاومة • قال : سيدي صالح • قلت : بالضبط ! قلت : أتذكر رائحة أمي ؟

القسم الثاني

صفراء مثل تلك الخيول التي تظهر على المنمنمة والممثلة لطارق بن زياد ومجموعة من القواد وهم واقفون أمام سهل (فحص يقول ابن خلدون) شريش . المجموعة العسكرية لا تتجاوز العشرة أنفار بمن فيهم طارق بن زياد ومساعدوه وضاربو الطبول ونافخو الأبواق وحاملو الرايات . صفراء أيضا تلك الخيول الواقفة خلف خليج الزقاق . كانت تحمل فرسان الطليعة يتصدرهم طارق بن زياد . أما بقية الأحصنة فقد كانت عنابية اللون . أو بنية . كان عددها عشرة . مصطفة كلها على خط واحد . ما عدا فرس أحد قارعي الطبول . ووراء المجموعة العسكرية خمس رايات . أولا : راية رمادية القماش وقد كتب عليها بحروف كوفية بيضاء اللون تلك الكلمات : (قل هو الله أحد الله) . أما الكلمات التالية للسورة فهي مخفية . ثانيا : راية حمراء قد نسجت عليها هاتان الكلمتان من أعلى الى ما أعلى منه : الله . وتحتها كلمة : أكبر . وما يفرق بين الكلمتين رسم هو عبارة عن شبه نجمة مربعة الأطراف . ثالثا : راية شهباء تحمل عدة كلمات مكتوبة بالأبيض لا يمكن قراءتها لتشابه اللونين ، أي الأشهب والأبيض . ولكن يمكن من أراد التمعن مليا في الصورة أن يكتشف كلمة (الله) في الجزء الثالث من الراية . على الجهة الغربية . رابعا : راية منسوجة من كتان أسود قد طرزت عليها هذه الكلمات : لا اله الا الله . أما بقية الجملة فلعلها : (محمد رسول الله) وهي غير ظاهرة . وذلك

بسبب رأس قارع الطبل ذي الحصان المتقدم • فهو يخفي الربع الأخير من هذه الراية • خامسا : راية عنابية النسيج تحمل هذه الكلمات : لا اله الا الله محمد أما بقية الجملة فهي مغطاة برأس أحد الجنود الذين يصحبون طارق بن زياد • يلاحظ على كل راية من هذه الرايات الخمس شرابة ، أي نوع من خصلة خيوط قطنية ، كثيفة ، مخروطية الشكل ، وردية اللـــون • ولعلهـــا (وعددها عشرة ، أي شرابتان لكل علم) هي التي تشد القماش على الاطار المستطيل الشكل الذي لا يمكن المشاهد أن يقول من أية مادة مادته • وبغض النظر عن هذه الرايات الخمس المعلقة فى قفا الكوكبة ، يلاحظ ثلاثة أعلام يرفع كل واحد منها أحد الضباط من أعوان القائد الفاتح (ولعله طريف بن مالك النخعي) • وتحمل هذه الأعلام الثلاثة الرسوم الهندسية عينها وهي عبارة عن مجموعة من المربعات والمستطيلات والـــدوائر والمثلثات • كما أن الألوان كانت تتكرر هي نفسها : أي أن اللون الأسود يسيطر فيها على الألوان الأخرى : من خزامي ووردي وأصفر فاتر • كما أن كل علم كانت تعلـــوه شرابة وردية • ويظهر على شمال المنمنمة وفى أقصى طرف الصورة بيرق مستطيل الشكل ، محصور العرض • ويحمل أحد ضباط ضباط طارق هذا البيرق الطويل وقد قبض على عصاه بكلتـــا يديه • ولعل هذا ان دل على شيء فعلى ثقل هذا اللواء الأسود اللون فى وسطه • أما هامشاه فقد جاءا مذهبين ومزينين بسجائف مختلفة الألوان والأشكال ، صوفية المادة وحريرية الطريزة • والكتابة هذه لا يمكن قراءتها لفساد المنمنمة على مستوى هذه الجهة أو لارادة من الفنان ، مما جعل هذه الزاوية من الصورة غير واضحة ، والى حد ما ، مرتبكة ، غامضة بعض الشيء أو ـــ

بالأحرى ـ مرتجة ، أو ـ على الأصح ـ مهتزة ؛ ولعل هذا الغموض ناتج أيضا عن أسباب فلسفية أو دينية ، فتكون هذه النقوش المنحوتة على البيرق الأسود ، مجرد اشارات ذات دلالة طلسمية أو سفرة سرية لا يفقهها الا أنصار المسلمين الفاتحين ، فتولد عند أعدائهم الدوار وبالأحرى تدوخ ذلك القائد الكافر الذي قام ضدهم (ارذريك ؟) ، فراح يجند جيشا مكونا من أربعين ألف مقاتل معظمهم من القوط والجلالقة والافرنـــج ؛ فتدوخ هذه الطلاسم ـ اذن ـ كل من سولت له نفسه أن يقف في وجه الفاتحين . فتبهره وتذبذبه ، فلا يعرف ما يفعل ولا كيف يحارب ، فيهزم هذا القوم الكفار أمام أولئك العرب (مائتا نفر تقريبا) والبربر (زهاء عشرة آلاف نفر) الذين لم يأتوا غزاة بل فاتحين من عند ربهم مبعوثون . وأيضا : كل فرد من أفراد المجموعة كان ملتحيا لحية صغيرة سوداء قد شذبت على النمط نفسه . فلا فرق يذكر بين لحية طارق بن زياد وبين لحي مساعديه أو الضباط المسؤولين عن الأدوات الموسيقية أو عن الأعلام والرايات والبيرق الفريد من نوعه وقد طرز بطلاسم ... أما آلات الموسيقى فأربع (أم ثلاث ؟ ذلك أن الطبـــل كان يحتوي على جزئين يكاد ينفصل الواحد عن الآخر ويكون هكذا آلة منفردة ، على حدها) أي بوقان وطبل ذو حدوتين = طبلان . فيكون هكذا ، وخاصة بالنسبة الى الناظر المتسرع الذي لا يعير عادة أي أهمية للتفاصيل المعروضة على اللوح والتي تكون ، على زعم الفنانين أنفسهم ، القسط الأكبر من العمل الابداعي (تراكم التفاهات ؟) ، ـ وفي النهاية ـ عدد الآلات الموسيقية ثلاثة ـ لكنه لا يمكن استعمال عملية الطعن (بالمعنى القانوني) للتوفيق بين الأطروحات المختلفة والمتعددة .

فتجعل من هذه القضية الجمالية مسألة فلسفية ، بحيث يمكن السفسطة التدخل فيها ، وذلك الى ما لا نهاية • ويمكن قول القول نفسه عن عدد العمامات المختلفة الألوان ، المتوازية الأشكال ، مما يبعث على الحيرة والقلق ، نظرا لأن أحد العساكر يظهر على المنمنمة وكأنه لا يحمل عمامة قط • ولعله قد نسي أن يضعها قبل الاقدام على هذه العملية العسكرية ، لتسرع منه ، أو ـ أيضا ـ لعل اختفاء العمامة يرجع الى سبب فني محض يطلق عليه اسم الرئاية فى علوم الرسم والتصوير • خاصة وأن الجندي ذا العمامة المفقودة هو على طرف الصورة ، أي فى أقصى اليسار • وهو ، بالضبط ، أحد نافخي البوق • وبالنسبة لعدد الأحصنة فيلاحظ المشاهد بكل سهولة أن عددها يتجاوز عدد الفرسان (عشرة) وهي (الأحصنة) اثنتا عشرة • فلماذا هذا الفارق فى العدد ؟ هناك افتراضات كثيرة • 1 ـ لعل هذين الفارسين قد وقعا على الأرض لما انتابهما من ذعر ازاء أهمية الموقف التاريخي هذا ، ألا وهو الفتح الاسلامي ، وذلك ليس فقط لبلاد الأندلس بل أيضا لكل المناطق هناك وراء جبل البرطاط ، وخاصة منها بلاد الغول • 2 ـ لعل هذين الفارسين قد قتلا أثناء المعركة السابقة أي أثناء عبور الزقاق ، أو لما وطأت أرجل المسلمين أرض الكفار ، لأول مرة فى تاريخ الفتوحات الربانية ، وبقيت مطيتاهما تتبعان الركب ، عن غريزة حيوانية أو ارتكاس مشروط • 3 ـ لعل (أيضا) هذين الفارسين راحا ضحية البصريات وقوانينها الصلبة ، فتعذر على الفنان تصويرها ، لأنه (الفنان) لم يرها عند الرسم وذلك بسبب الحدود المترامية التي تفرضها الرئاية على العين • 4 ـ لعل ـ أيضا ـ هذين الفارسين قد تركا جواديهما لقضاء حاجة (تبول .

أداء صلاة فائتة ، استراحة ، معالجة حوافر المطـايا ، تبديل السروج أو لسبب آخر يصعب حصره نظرا لما فى الأمـر من فرضيات ممكنة لا حد لها ولا نهاية) 5 ـ لعل

لكن • أيسكن زيارة مدينة أجنبيـة نائية لسبب نرجسي فقط ؟ أنت أبله يا طارق • فقط لأنك تحمل الاسم نفسه • هلا جننت ؟ وأنت لا تني تتوسل الي مطالبا اياي باصطحابك على غرار ما فعل موسى بن نصير الذي اصطحب طارق بن زياد بعد أن دخل الاندلس (وكتب طارق بن زياد الى موسى بن نصير بالفتح والغنائم فحركته الغيرة ، وكتب موسى الى طارق يتوعده بأنه يتوغل بغير اذنه ،ويأمره أن لا يتجاوز مكانة حتى يلحق به •••)

لماذا تريد أن أسافر وإياك ؟ جبل طارق ، (Gibraltar) ان أردت ، مدينة عادية ، ليس فيها ما يلفت الأنظـار • تهكم هنيهة • حاول أن يقهقه • ثم عكف عن الأمر • ليس لأنه رجل لطيف ولبق وانما لكثرة ما فيه من دهاء خاصة عندما يريد نيل شيء هو فى حاجة ماسة اليه • عندها ينسى أنانيته فيلتصـق بالشخص كالبق على بشرة ناعمة • أردت مصارحته فى الأمر • قلت هل عدت الى أيام الالتصاق ؟ رفع عينيه نحوي وكله تساؤل لم يفهم • قلت : لا يهمك • لا شيء • فكرة عرضية فقط • أخرج من درج عيادته دليلا سياحيا ورماه فى اتجاهي • ألقيت نظرة سريعة على الغلاف الفاخر ، الزاخر بالألوان : تعالوا الى جبل طارق •••

Visitez Gibraltar...
Visiten Ustedes a Gibraltar...
Visit the Town of Gibraltar...

على الغلاف الزاخر بالألوان اذن ، قائلا لكنها مدينة قبيحة

انجليزية الطابع والتقاليد • اتركنا والنرجسة الرخيصة هذه •••
خلينا وهذه الخرافة • موش على خاطر اسمك طارق مثل فاتح
الأندلس • واعلم يا حكيم (ازدراء ؟) أن طارق هذا كان يحب
اللحمة الحية ••• وقد بلغكم مما أنشأت هذه الجزيرة من
الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان
والحلل المنسوجة بالعقيان ••• ضحك • أوقفني عند حدي
بلباقة • قال : أتذكر : طرقت الباب حتى كلمتني (كل متني) ؟
قلت هل هذه اسقاطة نفسية ؟ بئر الطفولة عميق • أتركنا وهذه
الصبيانيات • لم يرد علي • استأنف : وبالت سعاد ؟ ما رأيك ؟
قلت لو سمعتك زوجتك لغضبت وحردت عليك • وهو : لا
تتهرب ••• وبالت سعاد ، أتذكر ؟ أجبته مجاملة ولكي أجعله
يكف عن هذه التفاهات : فقلبي اليوم مبلول • وراح يقهقه
كالطفل ، كالمسعور كالنائم ــ اليقظ ، كالمتسرنم • سحابة
خفيفة تمر من وراء الزجاج المقابل للأريكة التي كنت أشغلها •
لم أمس الدليل السياحي • بقي هكذا ملقى على الطاولة • دفعه
نحوى خلسة • تفاعلت عدم رؤية مناورته هذه الصغيرة • قربه
مني أكثر • قلت : تريد أنت الذهاب اذن الى مدينة جلالة
الملكة • كيف يسكن ذلك ؟ جبلطارق مدينة انجليزية محضة •
ليس فيها ما يسر وما يهم • قال وما يهمك ؟ تعال معي وستفهم
قلت لماذا لا تصطحبك زوجتك ؟ أنا لي أشغال شاغلة : قال ــ
بغير أي منطق أو تمهيد ــ أراك تتحدث مثل الأستاذ بن
عاشور ••• « فى أشغالك الشاغلة » ان لفي ذلك شيئا من
التكلف يا صاحبي • فقهقه • ولم أر فى ذلك أي مبرر •
سكتنا هنيهة • دقت الممرضة على الباب مستأذنة • لم يرد
عليها • أدخلت رأسها وقد شققت الباب قليلا • الهاتف • قالتها

بصوت متقطع وانصرفت • لم يرد عليها • قلت ان فى الأمر
احيلة • أتعرف أنه يلزمنا تأشيرة ؟ فوجىء من كلامي • قال :
كيف هذا تأشيرة ؟ موش ممكن ••• هل أنت متأكد ؟ قلت
(متهكما) لماذا هذه الحيرة •••؟ أتظنها لا زالت بلاد أجدادك
يا طارق ؟ ومن أين لك هذه السلفية الجديدة يا أخي • أ أنت
متردد ؟ هلا تراجعت ؟ أرض الأجداد أليس كذلك ؟ هل نسيت
دروس الأستاذ بن عاشور يا ولدي ؟ لم يضحك • بل حدق
فى بضعة ثوان طويلة • سوف تفهم تعال معي • الجزء المختبىء
من الجبل الجليدي • قلت قل : Iceberg ودعنا من
التكلف • ما بك اليوم ؟ هلا أردت قتلي بالماء البارد •••
بكلامك المثلج هذا : Iceberg ! ليست هذه كلمة فرنسية •
اذن ؟ لم يرد على تهكسي • فبدأ وكأنه متخمر ، غائب ، بعيد •
اغرورقت عيناه • قلت أن فى الأمر لمكيدة • ودخل الرجل
فى أطوار وأصوار • لم يعودني على مثل هذه التصرفات • قال
أتشرب قهوة ؟ قلت بلى • خرج من حجرة التفحص التي اعتدنا
الجلوس فيها كلما أردنا الاختلاء • رجع بفنجان قهوة • لاحظت
أنه أدخل فى شعره تعديلا • استلمت الفنجان قبل أن يضعه
على الطاولة • خطا خطوتين ووقف ورائي ؛ أي بالأحرى —
وراء الأريكة الجلدية التي جلست فيها • رأيت ظله ينعكس على
زجاج النافذة المقابلة لي • كان ظلا كئيبا • سمعته يقول : أنت
تغار مني ••• كانت الكلمات وكأنها لا تخرج من فم ناطق كما هو
مألوف ، بل تنبع من الأشياء • فلعل هذا الانطباع سببته الطبقات
الهوائية المتراطمة الواحدة على الأخرى فتجعل — وقد بدأ الليل
يسدل سدوله — الحروف عبارة عن جزئيات من المطاط الخام •
ظننت ، للوهلة الأولى ، أنه هو السبب الذي يجعلني لا أفهم

ما يقوله صديقي • اذن لم أرد عليه • كأن كلماته قد لفتهـا العتمة التي بدأت تتسرب الى الغرفة رويدا ، رويدا • وبقيت أراقب حركات طارق من خلال زجاج النافذة ليس الا ، رغم تغيير لونها المتنقل من الأصفر الى الباذنجاني • رأيته يرفع ذراعه نحو مكتبته ويتحسس الكتب بيده اليسرى دون أن يغير من وضعية جسمه الذي بقي مقابلا للنافذة • فتمكن بعد برهة من الزمن من استخراج كتاب كان مصفوفا بترتيب الى جانب كتب أخرى متعددة على الرف السادس من المكتبة • لم أحدس ذلك ، بل تمكنت من تعداد الرفوف فيما راح يحاول التحصيل على الكتاب دون أن ينظر الى المكتبة ، وذلك على الرغم من تقلص الضوء • قلت ، وهو يقوم بعمله هذا ، لماذا لا يشعل المصباح الكهربائي على مكتبه ، علما أنه جميل الشكل ، نبيل المأخذ • تذكرت أنه تحصل عليه هدية من أبيه وقد أتى به منذ سنوات من براق ، أو من احدى المدن التشيكوسلوفاكية • قال لي طارق . مرة ، ان أباه كان قد اشتراه يوم الأحد 12 أفريل 1934 • لم أنس تلك الأرقام : 12 — 4 — 1934 • لماذا لـم أنسهـا ؟ بل حفظتها منـذ سنـوات عـلى الرغـم مـن أنني لـم أتقابل مع أبي طارق ولا مرة واحدة ؟ بل كنت أعرف أمه معرفة جيدة وأتردد الى منزلها حتى جاء أجلها كما كانت تقول أمي أنا • أخذ الكتاب من على الرف • رأيت ظله يتقلص فيما راح هو يفتح المجلد (كيف عرفت ذلك ؟) وبدأ بالقراءة : ••• فحركته الغيرة ، وكتب الى طارق يتوعده بأنه يتوغل بغير اذنه ،

ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، واستخلف عـلى

القيروان ولده عبد الله ، وخرج معـه حسين بن أبي عبد الله

المهدي الفهري . ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة فى عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر ووافى خليج الزقاق ... هل أنت أيضا أخذتك الغيرة ؟ لماذا لا تقبل بالذهاب معي الى جبل طارق ؟ الأمر أعوص مما تظن . تعرف قصة الصورة الذهنية ؟ بدون شك تعرف . قاطعته : لا ... لا ... لم يعرني أي أهمية . استطرد قائلا كل شخص يمتلك صورة ذهنية واحدة ، فريدة من نوعها ، تلعب دور الهاجس المحرك لكل حياته ... وتكون هذه الصورة عادة غير موعى بها من قبل الانسان الذي يبلى بها . لا تخف سوف لن ألقنك درسا . اذن ، أعلم أن صورتي الذهنية مرتبطة بجبل طارق ، وكفى بالله سبيلا . قلت هذا ممكن جدا . لكن ... قال : ما كانش لكن ... حطها فى مكتوبك لكن هذه واسكت . ساعدني يا عزيزي ، انني فى حاجة الى اعانة . قلت ولكن لماذا أنا خاصة ؟ قال : أ أنت أبله الى هذا الحد أم انك جبا .. تخا فمن كل ما هو جوفي ؟ قل لي من رافقني طيلة طفولتي من الكتاب الى الثانوية فالجامعة ؟ من كان جالسا الى جانبي أثناء دروس الأستاذ بن عاشور ؟ التاريخ يا أولاد اياكم والتاريخ ... جهنمي هو يا أطفال . قلت حاضر يا سيدي . ان لك القرآن .

كان لي القرار هذا ما كان يقول معلمي حين لمحته يدنو وهو ينفخ فى سماق اللوح يفرش لي الحصير يتوعدني هل حفظت السورة ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا ... يصوغ كمي من رنين الحرف / الحرب كانت الحرب أين طفولتي أهدرت اختبأت وكيف أقص عن غسق يصاحبني الى باب الكتاب دخلت الجامع السفلي عند الصحن كان الضوء منحدرا وجلبابي بلله

الركبتين لمحته يختار لي قصبا يقول أكتب السورة ثم مشيت
أستنشق خلسة ابط أمي وهي ترفع ذراعيها نحو حبل الغسيل
نعلق عليه خرفا غريبة الشكل ••• النساء فى المحيض ولا تقربوهن
حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله أمي طاهرة
لا هلولة فيها يصفعني يقول أبي يا ابن الزاذ ••• أقول لا هلولة
فيها يصفعني ثانية أقول لا هلولة فيها رائحة ابطيها تعبق رائحة
الورد المرث طيلة أحقاب ودهور يصفعني يأخذ بي الى صحن
الكتاب يقول هذه أمانة على عاتقك لا تحاسبني ! الا بالجلد
والعظم والدم (والدم الحيضي ؟) أمي طاهرة يصوغ الشيخ
أخمص القدمين من رنين العصا والحرف والحرب وجلبابي يلف
الركبتين لمحته يختار لي حبلا وعودا وعصا وقصبا يقول أكتب
أكتب كلمة جرح بالساق الأحسر ثم أمشي عليه جرحي لا أريد
ازعاجها أمي أمشي عليه جرحي أقص عن غسق باذنجاني وعن
شفق كبؤبؤة خروف العيد عند النحر مخضوضرة عن شفق
مخضوضب بخضرة لا يسكن حصرها بدقة فى سجل الألوان
القزحية السبعة لا أريد افجاعها هي ترفع ذراعيها نحو حبل
الغسيل استنشق ابطيها خلسة يعبق منهما ماء الورد المرقد فى
كثير من الماء وقليل من زيت الزيتون يقول بعد الجرح أكتب
وجلباني يلف قدمي أجبر نفسي أمشي عليهما وصاحب القرار
والخاتم المطبوعة به كل صناديق البيض والحوامض المصدرة الى
جميع أقطار العالم بأسماء المدن التي تقصدها بمافيها Gibraltar
وصاحب القرار يقول اذن أحاسبك بالعظم والجلد والدم
« هذا دمي فى وجنتيك رأيته » لم أذكر حنين أصابعي العلوية
وأصابعي السفلية والشهوة الأخرى على خنابتي مذاق عطر
ماء الورد السابحة قهالاته فى ماء زمزم أتى بها أبوها عامل السكة

الحديدية الفقير رأيته يبيع جرائد الحزب السرية فى القطـارات أيام كان الحزب ممنوعا أي تكاد تكون الأيام التي خلقها الخالق منذ كم عاما والحزب ممنوع يبيع جرائده ويوزع مناشيره فى كل أنحاء القطر جاء بماء زمزم فى قارورة صغير قال هذا للبركة بركة الفقراء وضعت ه يفيها قعالات الورد واحتفظت بها طيلة حياتها والشهوة الأخرى على خنابتي بمذاقها العطري على أهدابـي بمرآها القشري أمي طاهرة وطاهرتان أيضا ابطاهـا المرطتـان بمعجون الحامض المغلي غليانا مدة أيام وليال سوف أذكر سيد الكلمات تقول هي لا تغضب لو كان جدك على قيد الحيـاة لعاتبك هذا سيدك سيد القرآن لا تغضب لم أغضب يومها أما اليوم فانني أغضب نسيت أصابعي لما كنت أتردد الى الكتاب بين الذهول والزندقة أمي طاهرة وهي ترفع ذراعيها ترفعهما نحو حبل الغسيل تعلق عليها خرقها الخاصة ومذاق الملح فى فمي وآثار فحم شعرها لا زالت مرسومة عل بشرتها الابطية وهذا اليوم فعنفي طالع من سراديب الحمى والكذب واللامقول من أين لها أن تفهم هي العفيفة زلة اللسان أو زلة الرجل ـ الرجل أنا المقصى من عتبات الشيخ تضمد هي أناملي بأوراق التوت نأخذ منها لدودنا المروض مأكلا ومشربا يكشف لي دود مأكلا ومشربا يكشف لي دود القز (دود الحرير) شطحات راسخة فى الشوق لمناطق لم أتته بعد من مسحها تفور ضفاف الرمال بالرؤوس التي قطعت غدرة فاستدارت بها الأرض جاء الجنود فمسحوا الأرض شبرا شبرا بنوا مقصورات على أهداب الجبال والمرتفعات حشروا فيها سلاحا وذخيرة وخوفا مريبا وحقدا رهيبا وما زلت أذكرها تلك المدينة التي هيأت أمي يومها فيها فجاءت من الجهة الأخرى صلصلة ماذا يقرأ هؤلاء الرجال على الميتة فى حفرتها

يتدلى الضوء فوق الحفرة من هذه الميتة التي رموها فى جب القبر كما يرمى الدلو فظهرت على سطح الماء أوراق الورد ما زلت أذكرها ضفاف الرمال تلك المتعرجة من خلال المسالك والمواعر ما زلت أذكرها اذن فى متم الصبا وتوالي الشهور لقد ضاقت هي اليوم بأجداثها وأضغاطها وترامت كوابيسها تتجول دارا فدارا حيث جاء الغزاة لخلع الحرمة علينا فجاءهم رماة يحجون من كل مج وفج يحول ما بينهم خندقان وما خلفهم بحران تحدر من صلبنا رجل باللثام رأيت المدينة غاضبة متظاهرة متمظهرة وقد خرجن (النساء) على غير عادتهن ففصلن حدود المساء بملاياتهن السوداء فظن اللفيف الأجنبي أن الغربان تهاطلت على المدينة وتبجج الخونة والجبناء بأنها طير أبيل والمشايخ أيضا والقضاة وعم الحسين لا يضيع فرصة لضربنا ونهر النساء لكن أمي لم تتراجع حتى جاءها فدائي (أحد أبناء عمي) كان يعمل من ذي قبل فى مخزن صاحب القرار والخاتم يعمل سحابة نهاره على وضع الطابع على خشب الصناديق المعلبة بيضا وحوامض مصدرة الى بلدان العالم كلها بما فيها Gibraltar وقد حرفوا اسمها الأصلي ولم يغضب صاحب القرار لهذا المنكر ومن ينكر أن بقايا أمي انحرفت فى جب واستنقعت فى مائه الرديء بعد أن كرست حياتها للاحتفاظ بقارورة صغيرة مملؤة ماء زمزميا ملأتها بيتلات الورد وأضافت عليها بعض قطرات زيت الزيتونة المسنة والمهملة فى مؤخر البستان ولم يزبر أغصانها أحد منذ وفاة الجد الشيوعي •

كانوا يسترقون السمع الى محادثتنا ولما نظرت فى اتجاه أحدهم أشار الى أصحابه بأن يبدلوا اتجاه أنظارهم ففعلـوا بسرعـة وتفاعلوا الانهماك فى لعب الأوراق أمامهم • فنهض طارق بدوره • هل ستأتي ؟ ركبنا السيارة من جديد ورغما عن أنها كانت فى

مضرب الظل ، ارتعنا لشدة الحرارة التي كانت قد تلبدت داخلها عناقيد عناقيد . وما أن جلست مكاني حتى بدأ العرق يتصبب على جبيني أولا ثم على جسمي . كانت السيارة تتقدم ببطء . فتح طارق النافذة القريبة مني . لكنه لم يجد الأمر نفعا . ولما وصلنا الى محطة البنزين لم نجد أي طريق على الجهة اليمنى كما دلنا على ذلك صاحب المقهى . استأنفت السير بمعدل ثلاثين فى الساعة على أكثر تقدير . لم أكتشف أي طريق أخرى . واذا بالمنازل الريفية تقل وتتبعثر . رأيت منزلا قديما ، فلاح لي أنه من هندسة عربية . وما أن اقتربت منه حتى ضحكت من نفسي . وفهم طارق ما أقصد . ابتسم واكتفى بتحريك رأسه يمنة ويسرة . وراح يشخص الطريق والعمران القائم هنا وهناك . واذا بنا نصل بعد ربع ساعة الى احدى مفترقات الطرق . انعطفت على اليمين حسبما أوصانا به القهوجي بتوصياته الغامضة . مررنا فى بساتين مزروعة قطنا . واذا بالسيارة تشرع فى الاهتزاز والارتجاج . فلم يكن الطريق طريقا بل مسلكا ريفيا معبدا تعبيدا رديئا . أشعل طارق سيجارة . قلت : من المستحيل أن تتوقف عن التدخين ، فلن تقوى على ذلك . قال : سأتوقف . انني اليوم لم أدخن الا خمس سجاير . قلت : لكن الساعة لم تتعد الحادية عشرة صباحا . قال : الحق معك . صبنا من هذا وانظر أمامك ، فالطريق كلها حفر وحواجز . نظرت أمامي . واذا ببساتين القطن تنتهي تاركة المجال لأرض قاحلة ، قاحطة . شعرت بالحرارة تزداد فورانا . ظننته شعورا لمجرد انطباع ناجم عن اختفاء البساتين الخضراء . بعد بضعة كيلومترات برزت أمامنا مجموعة من الديار الريفية الفقيرة . كانت مبنية من الطين الأحمر والطوب الميبس . أبطأت . اقترب طفل من السيارة وكأنه خارج من

العدم . اذ كان المجمع السكني الصغير فارغا من السكان .
وقفت السيارة . نظر الطفل الينا قائلا : اذا كنتم تبحثون عن
خزان الماء العربي فقد أخطأتم . أصبح وراءكم . لوح بيده
الى الجبال المضببة لشدة القيظ . قلت هل تتكلم الانجليزية ؟
قال : لا لا . بعض الكلمات ... Some words only
قلت لطارق متهكما : اسأل عن الطريق . انك تحسن الاسبانية.
قال : لا . أبدا . ليس كما تظن . وما هذا التفتيق ؟ وأنا مثلك
... على كل حال الاسبانية مشتقة من اللاتينية . فهمهم وهم
بالنزول . وراح يتحدث مع الطفل عن طريق الاشارات . ورحت
أضحك فى قرارة نفسي . كان أشبه ما يكون بأحد البهلوانيين
بقامته الطويلة ، ونحافته البالغة ، وتبانه المتساقط على ركبتيه
الناتئتين والصارخ بألوانه الزاهية المتناقضة . سمعتهما يتحدثان
لغة غريبة . وما لبثا أن ضحكا . نزلت بدوري مستخبرا عما
يجري . يا له من داهية . عرف كيف يستقطب ثقة الطفل .
وعندها جاء كهل يجرجر أقدامه ووراءه دجاجة ذات العنق الأرقش
والمريش . ركلها برجله فأفلتت فى عياط وزياط . فهرولت أنا الى
السيارة وتركت صاحبي يدبر أمره بنفسه مع الاثنين . وبعد
لحظات سألته مستفسرا . قال : خلط وجلط وملط . كل يغني
على ليلاه . ما همش متفاهمين . قلت : اسمع ما يقول الطفل ..
أفما لاحظت أن الرجل أبله ؟ قال : أنت هو الأبله . قلت :
لا يمكن الاستمرار هكذا بدون دليل أو مرشد ، هيا نعد
أدراجنا . لابد ممن يعرف مكان هذا الأثر العربي . قال :
براكة ما تتمسخر بي . لا تهزأ يا ولد ... سوف نجده ...
تمهل . تفاقم الجو الجهنمي فى السيارة . قلت : هذى عافية .
اجهنم اتحلت . أتعلم أي شهر وصل فيه طارق بن زياد الى هذا

البلد الأمين ؟ قال : يا للسؤال السخيف ! حدق في الطفل • ثم حدقت أنا بدوري في الرجل وأرغمته على تغيير اتجاه بصره • وبغتة عيل صبري • نزلت من السيارة ووقفت أمامه • يا الله نمشي ، خلينا من هاذ المساكين لا يعرفون شيئا • اركب وسوق • كرهت السياقة • يا لك من بطل يجري وراء آثار طارق بن زياد • دفعته نحو السيارة • تركني أتصرف كما أشاء • انصاع لأوامري وبقي الطفل والرجل ينظران الينا نظرة دهشة واستغراب • ركب في السيارة في مكان القيادة • صعدت بدوري الى جانبه • أخرج رأسه من النافذة وهتف باتجاه الكهل : Dont care it. : He is only... كملت الجملة ــ مقاطعا اياه بشيء من الغضب لشدة ما توترت أعصابي تحت تأثير الحر : Funning...

لاحظ أن عدد الرافعات قد ازداد ازديادا ملموسا • أما لون الرافعات الجديدة فاحمر • وقد كانت القديمة صفـــراء • أو بالأحرى كانت تميل الى الاصفرار على اختلاف درجاته حسبما تتعرض للشمس • أما في الأيام الممطرة فلا يكاد يراها • فالمنطقة تتمتع بمناخ محلي خاص لا يتجاوز الكيلومترين أو الثــلاث كيلومترات ، فيغطي المكان ضباب سميك ، اذا ما غابت الشمس أو أمطرت الدنيا • كانت الآلات الجديدة الحمراء من صنع أحد المعامل المغاير عن الرافعات الصفراء ، ذلك أن اسم المنجز كان مطبوعا فوق كل آلة ، على احدى الصفائح الجانبية للعضو المتحرك أو العضو الحامل أو الرافع • تتجلى الكتابة بشكــل بارز ذي الحروف اللاتينية (Bouighes) مطليــة بالأزرق • شاهد العمال في احدى الصباحات يركبون الآلات الاضافية مما زاد على العمل نشاطا متزايدا في الورشة عامة • رأى عددا من العمال الأجانب يراقبون عملية التركيب وكأنهم يخافون سوء

تصرف العمال المحليين • فيأخذ منهم الاضطراب فيسودهم نوع من العصبية المرطة • لم يكن هؤلاء عمالا عاديين فى الواقع بل هم مراقبون اختصاصيون فى وضع الآلات الدقيقة • ولعلـه استنبط هو لوحده كل هذه الافتراضات التي قد يكون مبالغ فيها بعض الشيء ، خاصة وأنه نفث فى معطيات هذه القضيـة التقنية بعض العوامل السياسية ، مثل التبعية الاقتصادية الاكتفاء الذاتي التخلف الصناعي وقضية تشغيل الأجانب فى الورشات الكبرى والانجازات الضخمة من سدود وطرقات مزدوجة وجسور وتحويل لمجاري الوديان الخ ••• لم يعمل كثيرا فى ذلك اليوم لكثرة الحركة التي استولت على الورشة ولما اقتحمها فجأة من ضجة بالغة وعن غير انتظار فهو لم يتوقع ذلك خاصة وأن زجاج نافذة قاعة الفحوصات يتمتع بخاصية العزل التام ، هذا بقطع النظر عن كون الشقة التي كان يعمل فيها كائنة فى الطابق العاشر والأخير من هذه العمارة المحاطة ببساتين عديدة ، تلعب هـي الأخرى (البساتين) دورا هاما فى تخفيض معدل الضوضاء والجلبة المتصاعدين من قلب المدينة التي تسودها حركة مرور لا تتوقف ولا تهدأ طيلة النهار كله • وفى الأيام القليلة التي تلت تركيب الرافعات الحمراء الجديدة من نوع (Bouighes) فهم أن العمل فى الورشة أصبح يتميز ليس فقط بتنظيمه المحكم وتنسيقه المدقق بل أيضا بصمته وسكونه المطلقين ، وذلك منذ أن بدأت مقاولة الأشغال العامة فى انجاز هذا المشروع الضخم ، فى قعر المدينة ، دون أن يعرف أحد بالضبط ما هي نوعية هذا البنـاء رغم تواجد احتمالات عديدة واشاعات متعددة (موقف للطائرات العمودية ، مستشفى ؟ مبنى اداري ؟) ما فتئت تروج منـذ البداية ، أي منذ قرابة سنة على أقل تقدير • فقد استغرب للوهلة

الأولى عدم وجود اللافتة المعتادة على مدخل كل ورشة ، المشيرة الى نوعية الأشغال واسم الشركة المقاولة وعنوان دار الهندسة وقياسات المساحة ورقم الرخصة ومدة الانجاز الخ ... لكنه سرعان ما طرح هذه الأسئلة جانبا ، أي فور أن شرعت الرافعات الحمراء الجديدة التي تحمل على جوانبها اشارة زرقاء (Bouighes) . في العمل . خط أحمر فوردي (عند مرور الآلات الجديدة أمام قرص الشمس ، هي أيضا) فأحمر من جديد . خط أصفر . ثم أصفر من جديد . وتنطلق الرافعات كالأسهم متوغلة في كبد السماء الزرقاء هناك الى حد بعيد ، فتتلاشى اذاك كلمة (Bouighes) المكتوبة بالأزرق وتمحى فلا يعود بالامكان قراءتها أو تهجيتها حرفا حرفا لشدة تمازجها مع زرقة السماء . وتذكره زرقة الدهان هذه بزرقة البهو النيلي الذي كان يسر به كل صباح عند وصوله الى المدرسة فيقطع المسافة بين هذا البهو العتيق من النمط التركي المطلي جيرا نيليا والمصبوغة أقواسه أبيض وأسود ، أي ان كل رقعة بيضاء توازيها رقعة سوداء ، وذلك بالنسبة الى تاج العرصة التي تحمل القوس نفسه ؛ ليس الا . أما الجدران فهي نيلية . وهي تذكره اذن بزرقة البهو النيلي الذي كان يسر به كل صباح عند وصوله الى المدرسة فيقطع المسافة التي تفصل بين البهو العتيق المبني على طراز المعمار التركي ، في أقل من ثانية . يقطع هذه المسافة عادة بسرعة البرق راكضا ، وهو ذو الساقين الطويلتين ، لكثرة ما يهاب ردة فعل أستاذ اللاتينية وهو ذاك المتغطرس المتكابر بكل ما يمت بصلة ولو بعيدة ولو تافهة الى الحضارة الرومانية قائلا ، مرددا (الأستاذ) Laudate Pueri Nulla in Mundo pax sincera in Furore

ترجم يا بني هذه حضارتك لا تنس ، ترجم يا ولد : Laudate

ابتهجوا Pueri يا أطفال Nulla ليس هناك قط • ويغضب الأستاذ من جديد لا لا هذا لغو هذا حشو أو بالعكس لعله استفزاز هلا تستفزني يا وقح الحرب الحرب لا تعرفون الا الحرب ان أنتم متم فسوتوا على الأقل علماء لا جهلة يسكنكم أن تقدموا شكوى علي لجبهتكم هذه ••• لا آخافها Nulla لا تكفي وكفى بالله سبيلا وبقيصر رسولا استأنف يا أبله وبعدها أعمل السياسة أما هنا فأنا قيصركم شئتم أم أبيتم وسوف ينفذ ! In Mundo فى الكون بالضبط • موش فى العالم رائع يا ولد استأنف ! Pax : السلم Sincera : نزيهة أصيلة ؟ لا تتردد يا خبيث احنا مناش فى شرى بيع : (Charabia) احنا مع لغة الآله Sincera : آصيلة بالضبط رائع استأنف يا بني الله In Furore : فى الغضب ؟ الصخب ؟ أو هذا استفزاز معليش ومبعد اشكي بي للجبهة ابتهجوا أيضا أيها الأطفال فلا سلما نزيها يسكن أن يدوم اذا ما أمضيت معاهدته تحت وطأة الغضب والصخب جيد حسنا ما قلت يا بني الترجمة حدس موش شرى وبيع سينفذ ! الترجمة حدس موتوا علماء لا جهلاء • يذكره هذا اللون بالأزرق المصبوغ على الغلاف الزاخر بالألوان • اذن : لكنها مدينة رهيبة انجليزية الطابع قبيحة المنظر وهي عبارة عن سوق حرة يأتيها المغاربة والاسبان زمرا زمرا لشراء ما يحتاجون اليه بأسعار بخسة ولا يتجاوز عدد سكانها الاثنين وستين ألفا وطولها أربعة كيلومترات ونصف وعرضها كيلومتر واحد انجليزية الطابع والتقاليد اتركنا من نرجستك هذه يا فحل بك أبوك يا أيها الصبي ! سماك طارقا وقال العدو أمامك والبحر من وراءك لو كنت على الأقل تحسن السباحة فى الماء العكر ••• نرجسة رخيصة لا أكثر ولا أقل (ازدراء ؟) واعلم يا حكيم

الحكماء أن طارقك هذا لم يقل قط البحر من وراءكم والعدو أمامكم ولا حتى العدو أمامكم والبحر من وراءكم • خرافة ! ضحك • أوقفني عند حدي • كان الدليل السياحي بغلافه الساطع مرميا على الطاولة • ضحك • قهقه • أخذته نوبة من الضحك • تلوى تحت سطوتها • تلعثم : طرقت الباب حتى كلستنـــي • تذكرت بدوري • قلت بئس الطفولة بلا قاع يا طارق طـرقت الباب حتى كل متني (أو كلستني) اتركنا من هذه التفاهات • رد علي ما لك ضد التفاهات ؟ انها الأصل والصميم لا تهبـل يا رجل لا تنس ••• ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله من حيث أمركم الله من حيث أمركم الله • أعرب هذه الجملة من حيث لا فائدة في ذلك • دعني والا تلفظت بما لا يعجبك كلاما فاحشا ••• كان صاحب القرار يأخذني الى المسجد حين لمحته يدنو وينفخ في سماق اللوح يفرش لي الحصير يصوغ كفي من رنين الحرف من رنين الحرب كانت الحرب دائرة رحاها تسير على قدم وساق حرب ضروس أين طفولتي يسألونك عن المحيض ركضت الى المنزل أمي طاهرة أمي طاهرة ذراعيها ترفع نحو حبل الغسيل المخفي في مؤخر الحديقة بجانب الزيتونة القديمة المهملة ولم يزبرها أحد منذ أن مات جدي ذلك الشيوعي النزيه وقد عاد من مكة حاملا معه قارورة مفلطحة تحوي مـــاء زلالا مزمزما مرثت داخلهـــا بعض أوراق الورد ومزجتهـــا بضعـــة قطرات زيت الزيتون الحالك المخضر اخضرارا قطرات دسمـــة تقـــول كان يشرب من هذا الزيت جدك ملعقة كل يوم فور استيقاظه في الساعة الرابعة صباحا فيهرول الى البيت بعد تركه محطة السكك الحديدية بمصباحه المتأرجح اختبأت في دار أمي وكيف أقص

عن غسق يصاحبني الى باب الكتاب ويصاحب جدي الى عمله
في السكة الحديدية أمي طاهرة وهي ترفع ذراعيها لنشر خرقها
الخاصة صفعتني ماذا تفعل في هذا المكان ألم أحرمه عليك الزيتونة
مريضة لا تلعب على أغصانها الراشية والا سقطت قالت كلاما
لا معنى له وخرقها هذه صفعتني هي أمي طاهرة قل هو أذى بقيت
معلقة هي ذراعاها مرفوعتان فأكتشف ابطيها المنقيتين ، والمنتوفتين
وآثارهما الفحمية كيف أقص عن غسق يصاحبني الى باب الكتاب
دخلت الجامع السفلي عند الصحن كان الضوء منحدرا وجلبابي
يلف الركبتين وذعري يلف جسدي وشحمي يلف لحمي بابا عجينة
وكال الطمينة يا بوطي يا طوطي (Bud Abbot) لمحته يختار لي
حبلا وعصا يقول صاحب القرار والطابع لا تحاسبني خفت أن
أسألها صفعتني قالت كلاما لمحته يختار لي قصبا يقـول أكتب
رفضت الضرب تعنفت تقوقعت أمي طاهرة هل ستموت أمي نز
الدم من أطراف أصابعي وأخمص القدمين نسيت تقسي بين الذهول
والانبهار اتسبت طفولتي لمحنتها يومها اتسبت طفولتي لمحنتها
يوم جاء الجند واقتحموا البيت وقال العم الحسين لابنه شمس
الدين خلصني ربي منك ومن ابن عمك طارق سوف يحبسونكما
تنكلت بنا كل العائلة ما عدا صاحب القرار الذي كـان غائبـا
كعادته وأمي التي قفزت بسطل الماء وصعدت الى سطح الـدار
تغسل آثار الجريمة Abat La Fransse المطلية على الأرض
بطباشير صفراء قلت لشمس الدين Abas بال S لا بال T تعنت
تراهنا ذهبنا بحثنا في القاموس لجأنا اليه جاء العساكر لتفتيش
الدار صفع أحد الضباط شمس الدين تفل فيه شريكي في المحن
العائلية والمكتوبات الشعارية لكنه كان رديئا في مادة الاملاء قلت
بال S قال بال T انتصرت مرة أخرى تفل شمس الدين على

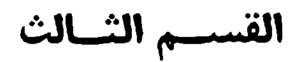
الضابط قال الضابط لو كان يصغرني أربع أعوام كان أبوه على
استعداد للوشاية بنا غسلت أمي ما كتبناه من جريمة شنعاء
قالت العمة فاطمة اشاه فيكم سوف يأخذونكم ويعذبونكم قهقه
شمس الدين صفعتني أمي W. Le Peuple Algérien لم تؤلمني هذه
المرة كان البرد قارسا أمي تسلأ الأساطيل والخادمة مامية تحك
الأرض بالفرشاة حكا مبرحا حتى ذاب الطبشور الأصفر !
W. M.O.C. !
صفعتني أمي لم تؤلمني هذه المرة مثلما فعلت يوم قال شيخي
أكتب ويسألونك عن المحيض قل هو أذى لم أكتب رفضت جاء
العسكر الى الدار يبحثون عن صاحب القرار والطابع ... كانوا
يسترقون السمع الى مكالمتنا ولما ألقيت نظرة فى اتجاه أحدهم
تفاعل اللعب بالأوراق أمامه على طاولة من الورق المشمع المزخرف
مربعات حمراء بيضاء أشار الى أصحابه خلسة بتغيير مناصبهم
فنهضوا مسرعين وتصنعوا الانهماك فى تصليح الجرار من نوع
Fergusson فنهض طارق بدوره قلت هل ستأتي ثم تبعني فى
اتجاه السيارة فركب وجلس وراء المقود وجلست أنا الى جانبه
كانت الحرارة لا تطاق وفور صعوده الى السيارة نز وجهه عرقا
فأخرج منديلا من جيبه وراح ينشف العرق قال جهنم تحلت قلت
هذا كل من أبوك هذا ما جناه أبي علي وما جنيت على أحد
ضحك وأدار المحرك انطلقت السيارة ببطء وتصاعد عقرب عداد
السرعة كثيرا (50 كيلومترا ونيف) قلت يا لها من عقدة سماك
طارقا وتركك تطرق الأبواب المفتوحة (Défoncer les portes
ouvertes) قال متهكما يا لك من لغوي عبقري فى التلاعب بالألفاظ !
فنان فى التلاعب بالألفاظ هذا جل ما تعرفه وبعد نصف ساعة ظهرت
أمامنا بعض الدور الريفية (5 أو 6) المبنية طوبا أحمر أوقف طارق

السيارة التي كنا قد استأجرناها هذا الصباح فور وصولنا الى المدينة اقترب رجل من السيارة وكأنه خرج مـــن العدم طرحت أسئلة عن موقع الآثار العربية خزان ماء أو بركة أو شيء من هذا القبيل طرح طارق أسئلة أنت تعرف لغات كثيرة همهست وهست بالنزول أخذ يتحدث مع الرجل وهو يقوم باشارات تكاد تكون بهلوانية ولعله ظهر لي على هذا الوجه بسبب تبانه العريض الذي يتساق ساقيه النحيلتين قلت فى نفسي تبا لك يا طارق بن زياد !

وأجاز طارق بن زياد البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة باذن أميره موسى بن نصير فى نحو ثلاثمائة من العرب . وانتهب معهم من البربر (أثخناء !) زهاء عشرة آلاف فصيرهم عساكر ونزل بهم جبل الفتح فسمي جبل طارق به والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريق فسمي بها وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصين وبلغ الخبر لرذريق فنهض اليهم يجر أمـــم الأعاجم . وأهل ملة النصرانية فى زهاء أربعين ألفـــا ، فالتقوا بفحص شريش فهزمه اليه ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم . وكتب طارق الى موسى بن نصير بالفتح والغنائم فحركته الغيرة

... وقد كان فى احدى الأيام الأخيرة أيضا أي بضعة أيام فقط لا غير كان العم حسين واقفا وسط الشارع وكأنه يتيه على وجهه واقفا هكذا على مفترق الطرق بقامته الطويلة ووجهه قد فقد جماله المعهود فأصبح عنقه يسبح فى طوق قميصه من وفرة هزالته وبرزت ياقته عريضة فضفاضة وهي عبارة عن اسطوانة من الورق المقوى والمنشى يبرز من خلاله عنق متكمش شبيه بأعناق السلاحف اذا ما تطاولت أو عنق دجاجة اذا ما عرى من اللحم مثل تلك التي شاهدتها فى احدى المضارب النائية من جبلطارق وأنا أرافق زميلي

وشريك طفولتي طارقا رمادي اللون (عنق العم حسين) ممخور بعارضات متقاطعة مشرئبات خلال جسده ذاك الذي أصبح عبارة عن كدس رخو من العضلات الرخوة ذات القشور الرثة والجلود الذابلة والامعاءات المتلاشية ولم يكن له ـ هذا الكدس ـ من الوقوف الا بسبب وبمساعدة ثيابه وكانت عيناه الرمصتان تحملقان فى وجهي تتجسسان على أدنى حركة أقوم بها أو أصغر بصيص يشتعل فى مقلتي فيظهر لي وهو على هذه الحال وكأنه يتحدث فى آن واحد بعينه وفمه وذلك بطريقة متزاوية ـ أو بالأحرى ـ كأن فمه ينطق دائما بدون ما علاقة بباقي الوجه المخضب شاربه بالتبغين فكان هذا المنظر يقززني ••• واذا به يقول مزايدة : دخلنا دخلنا للتبرنة متاع عسكر فرنسا واعملنا ارواحنا نسكرو ونشربو وكانت الطاولة متاعنا قريبة من بيت الماء لأن التبرنة كانت معمرة بالخلق وما لقينا غيرهذه المائدة بقينا هكذا أكثر من خمسة سوايع واحنا نسناو كاش واحد يجي يهدر معانا أحنا وحدنا اللي قررنا العملية ما كوناش نعرف المساهيل متاع الجبهة الحرب غير كيف بدات ساعة ساعة كنت أروح للسيحاض تتقي الشرب اللي اشربت باش ما يحكمش فى وما نسكرش كان امسخ بالزاف والحفرة متاعو تركية لكن الناس والفوا يبولو حاشاك على الحيوط المعمرة بالكتيبة خذيت ستيلوبيك واكتبت W.FLN وزدت W. M.O.C. كنت آنذاك من أنصار المولودية وقتها متاع قسنطينة تشفى عليها يا حصرة ! هل تتذكر يا طارق ؟


القســم الثـالث

استطاع شمس الدين ، بعد بضع سنوات من مداهمة الجيش المنزل بغية القاء القبض على الأب الغائب ، واكتشافه الشعارات التي كتبناها على أرضية السطح بالطباشير الصفراء ، وصفع القائد ابن عمي الذي لم يتورع من التفل عليه حنقا واغتياظا ، استطاع اذن شمس الدين أن يرضي كبرياءه بعد حبسه من قبل الشرطة الفرنسية اذ أرغم المستنطقين على احترامه . فما كان ينبغي عليه ــ حسبما صرح به بعد عدة سنوات ــ أن يفسح لهم فى المجال ليوجهوا شتائمهم البغيضة له ولرفع الكلفة بينهم وبينه فبدا هادئا أكثر منهم خاصة وانه لم يعرف للخوف معنى وقد كان يجابه قساوة العم حسين أيام طفولته . جابههم فواجههم وجها لوجه بكبرياء وعنفوان والعرق يسيل منه سيلانا فينز من خلال مسامه . فرفض أن يتفوه ولو بكلمة واحدة وظل متشبثا بموقفه لا يحيد عنه قيد أنملة . كانوا قد أوقفوه فسجنوه فى احدى المدارس النائية التي كانوا يستعملونها للتعذيب ، فحاولوا مس كرامته فربطوا أطرافه الأربعة بحبل وشدوا على عنقه . كان هدوء شمس الدين يخلخل أعصاب الجنود فى الغرفة وقد أفرغت من كل سمات التدريس ما عدا السبورة التي بقيت معلقة على الجدار المقابل . فراح يحدق فيها الساعات الطوال حتى كاد ينسى أنه قد سقط فى قبضتهم خاصة وانه كان مصمما على الانتحار قبل أن يلقوا القبض عليه ولكنه لم يتسن له ما يكفي من الوقت . فتفل على الجنود الفرنسيين الذين كانوا قد اقتحموا موقعه وأخذ ينظر الى

السماء لا ريبة فيه ولا جزع . قال شمس الدين مرة ، سائلا ابن عمه طارق : كيف يصاب المرء بمرض الخوف يا ترى ؟ يا ريت لو يصيبني أنا بدوري ، فأتخلص من داء الشجاعة المرهق هذا .
ونهائيا ... كانت الغرفة قد ضاقت اذاك بالعساكر ورجال الشرطة والدرك الذين كانوا واقفين جميعا ما عدا القائد العام لفرقة المظليين، وقد جاء خصيصا من مدينة سكيكدة حيث عاث فيها الفساد تعذيبا وتهويلا ، وذلك لاستنطاقه . كان الضابط السامي مرتميا على أريكة من الجلد الفاخر كانت على جانب من الغرابة وسط هذا المحيط المتقشف ، العريان . كان وجهه شاحبا بفعل الضوء الكابي الذي كان ينير غرفة التعذيب وكأنه ــ الضوء ــ يجعل (الغرفة) تنضح بروائح الأشياء العتيقة من خشب راش وجدران متلاشية وآلة راقنة من عهد الطوفان وهي من نوع Remington حسبما تحسب وذلك بسبب ما كانت تحدث العربة من جعجعة حديدية عند طباعها أي حرف من الحروف ، وكأنها (الراقنة) ترسل من حين الى آخر شبه سعال مخنوق ، فتزيد وتيرتها الغريبة من تفاقم الأشياء المشكوك فى جدواها وتضعضع الأشكال والحدود ، مما يبرز هزالة المشهد العام وهو (شمس الدين) يقول بصوت متهكم وقد تصنع البلاهة وعدم اتقانه لغة خصومه : Vouloir jaune craie moi فيبقى هؤلاء كالمشدوهين ويعلق الضابط السامي بعد ثوان : Il veut de la craie jaune
فيغتاظ المساعد وتتوتر أعصابه فيصرخ فى اتجاه المسؤول انه يهزأ بنا فماذا يريد بالطباشير الصفراء وقد حان وقت الوسائل العظمى . فيقول شمس الدين وهو لا ينزع ولا يزيح نظره عن السبورة العتيقة Moyens Grands والجميع واقفون وقد كتفوا أذرعهم على صدورهم الضخمة ، وقد سيطر عليهم الذهول والبهتان

(بهت الذي عسف) لطول ما أغرقوا فى التخمين فى مربكة الطباشير
الصفراء هذه • فكرر هو قائلا : Jaune craie moi voulant
أتوه بالطباشير الصفراء • علبة كاملة من الطباشير • فتحها بتأن •
أخرج الأصبع الأول بتؤدة • بدأ فى تشممه على مهل • تجنب
الضابط السامي ما أمكن ، ممعنا نظرة غائبة فى اللوح المدرسي
المعلق على الجدار المهترىء • قال دعوة يفعل • فزاد المأمور استياء •
كان بود الآخرين الانتهاء من هذه القضية بسرعة واغلاقها نهائيا
وادراجها فى مجموعة من الملفات الروتينية المكتوب عليها : قائمة
المتوفين بعد محاولتهم الفرار • وفى مجموعة من أنواع المخططات
التقليدية البالية التي حاول كاتب مركز الاستنطاق السري تجسيدها
بشطبة قلم على احدى الأوراق وبخطوط مستقيمة ، منحنية •
فيحصر كل الكلمات فى تحضير المحضر فى حدود خشنة ، قاسية
التضاريس ، رهيبة ، لا ترحم لكثرة تجردها • فتضفي على
ذهن المحبوس صورة المناطق المحرمة والمسيجة بالأسلاك الشائكة
التي نسجوها (العساكر) حول البلاد كلها . فراحت تنعكس
على الورق انعكاس نقاط متتابعة أو خطوط مشطوبة أو متقاطعة،
مكونة من نوع من جغرافية الكوارث أو تأريفة المصائب •
وهكذا وقد كان ماثلا أمامهم يستنشق الطباشير الصفراء الواحدة
تلو الأخرى وهو ما فتىء ــ ذهنيا ــ يطوف حول ذلك الشكل
الاهليليجي . ذي الاستدارة الكاملة التي عرضها عليهم ، مركزا
على جميع الخدشات المنحوتة على اللوح القديم (قل هو أذى)
المعلق أمامه ، وكل اتجاهاتها التي يحاول ــ عبثا ــ احصاءها
وهو الشكل الذي ضبط نهائيا تلك الهندسة المتعلقة باعادة
المشاهد التي يبرز من خلالها شبح العم حسين (أبوه) وهو
يضربه ضربا مبرحا ، وهو يمضي تافلا على الأرض احتقارا

وتعنتا ورفضا . وان كان مثل هذا التداعي (أو الربط) بين هذين الأمرين (معاملة أبيه له فى طفولته وتصرف جلاديه بعد القاء القبض عليه .Jaune craie voulant moi) مضبوطا ، منضبطا ، مسبقا ، لا لسبب المنطق الداخلي لكل عسف وظلم ايا ما كان مصدره ومهما كانت طبيعته (التربية (العم حسين) العائلية) أو (القمع (الضابط السامي) العسكري) ، المتلاحم ، الصارم والحجج القاطعة التي يمكن اللجوء اليها مهما كانت الأحوال . بل أن الأمر يتعلق بهندسة مدققة ملموسة عبر تسلسل تاريخي (تاريخ الفرد وتاريخ المجموعة) يقطع أنفاس الطغاة أيا من كانوا فيزرع الشك فيهم ، بل ــ ولعله ــ يدفعهم الى الاحساس بالذنب . قال شمس الدين أريد طباشير صفراء . ثم : صفراء طباشير أريد أنا . ثم أنا أريد طباشير صفراء . ثم : صفراء طباشير أريد أنا طباشير صفراء . مما حدا بالضابط فى النهاية أن يقول Je vais te la mettre au cul ta putain de craie...

وهذا ما فعل . لكنه (شمس الدين) بقي مستعدا ليجسد لهم مثل ذلك التسلسل ويخططه ويرسمه تبعا لاختيارهم ، معتمدا على مجرد نقطة خشنة ، حمراء فاقعة ، ترمز الى الدمار الذي يسببه ادخال قضبان الطباشير فى الجسم ، مع اللجوء ــ بطبيعة الحال ــ الى استخدام العناصر الثانوية التي تمثل ما يسمى بالمحيط الخارجي أو الاطار المادي من حركات وصفعات واحزازات وانتظارات وتصدعات وآثار وبصمات وكلمات (طباشير . صفراء . أراد . يريد . أنا (للمتكلم) وتفاصيل صغيرة (لم يعد يذكر الشعارات التي كتبها على أرضية السطح مع طارق شريكه فى الجريمة .) وترهات طفيفة ومسارات مذهلة ، وأيضا (آلات التعذيب مثلا) والتي تمثل أجنحتها وحوافها وآثارها ،

خطوطا منكسرة تعيد الى الأذهان تلك التضاريس الاجمالية والرؤى الكابوسية لذلك السرداب التاريخي بتعاريجه المتينة ، الهشة معا وفى آن واحد بسبب التجريدات والتيارات المضادة والكوارث والمذابح والحرائق والزلازل والأعاصير و ••• وفى يوم الاثنين الخامس من شهر رجب سنة اثنتين وتسعين جهز موسى جيشا وذلك بقيادة طارق بن زياد وكان يومئذ حاكما لطنجة • ومن الغريب أن الرواية الاسلامية لا تحدثنا عن طارق بشيء قبل ولايته لطنجة ، بل انها لتختلف فى أصله ونسبته ، فقيل هو فارسي من همدان ، كان مولى لموسى بن نصير ، وقيل انه من سبي البربر ، وقيل أخيرا انه بربري من بطن من بطون نفزة (راجع البيان المغرب لابن البلاذري) ، وهذه أرجح رواية وقد تم ايرادها فى هذا الكتاب بطريقة مفصلة (وهو طارق بن زياد بن عبد الله بن ورفحوم بن نيرغاس بن ولهاص بن بطومش بن تفزا •) ويبدو منها أن طارقا تلقى الاسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله وهو أول اسم عربي اسلامي فى نسبته ، ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهي الى نفزة . وهي القبيلة التي ينتمي اليها • وكان طارق جنديا عظيما ظهر فى غزوات المغرب بفائق براعة ثم اختاره موسى بن نصير لفتح الأندلس فعبر البحر من سبتة بجيشه تباعا فى سفن يوليان حليفه النصراني والعدو اللدود للقوط ولقائدهم لرذريك • ونزل طارق بالبقعة الصخرية . وذلك يوم الاثنين الخامس من رجب سنة اثنتين وتسعين • واخترق طارق المنطقة المجاورة غربا وزحف عليها واحتل قلاعها . بعد أن هزم شرذمة من القوط تحدث لوقفه ••• انتهت الحرب منذ أكثر من عشرين سنة وكانت احداها توشك أن تلتصق بجدار الدار حتى أنها كانت

تكاد تمسها فى فصل الصيف وهو جالس الى مكتبه خاصة عندما
كان يطيل العمل حتى ساعات متأخرة من الليل كان يكاد يمسها أو
بالأحرى يمس احدى أو بعض أغصانها تلك التي كان يضيئهـا
المصباح الكهربائي على المكتب فتلمع أوراقها لمعان ريش يرتعش
بحركة طفيفة فى أول الأمر ثم بحركة أسرع عند تقدم الليل وقد
أدلهم مؤخر الحديقة وتراكمت الظلمة عليه طبقات تكاد تكون
ملموسة فيما تتضاعف حركة الوريقات الاهليليجية الشكل وكأنها
مخضبة بلون أخضر ساطع يتصبب من الضوء الكهربائي المنبثق
من الحجرة التي كان يترك مصراعي نافذتها مفتوحين فينتعش لأدنى
نسيمة تهب حفيفة آتية من وراء جدران الحديقة وتسرى (أو
بالأحرى) تمتد رويدا رويدا حتى تستقر داخل التشابك الحالك
المتكون من تفرعات الأغصان فيظهر هذا التشابك من خلال زجاج
النافذة وكأنه يعتمد على حركة ذاتية مستقلة تنتشر بسرعة أكبر
عند هبوب الريح قوية بعد انتصاف الليل فكأن التوتة بكليتها
تستيقظ فجأة وتنتفض وتحمحم ثم وبدون أي فترة انتقاليـــة
تدريجية تعود السكينة فتهدأ الأوراق والوريقات وتسترجع سباتها
العميق الهائل وجمودها المهول ما عدا الأغصان الأولية تلك التي
تسلط أشعة الأنبوب الكهربائي أضواءها المجهرة عليها فتبرز بدقة
فى مقدمة الأغصان الأخرى التي لا يصل اليها الضوء فيشحب لونها
أولا ثم يغيب عن النظر شيئا فشيئا فلا يعود يراها وانما يحدس
وجودها الى أن تضمحل رؤيتها نهائيا لكنها تبقى فى الحديقـة
متواجدة متداخلة متطابقة الواحدة فوق الأخرى وسط قشرات
الظلام المتراكمة التي من خلالها ينبع حفيف خفيف أو زقزقة عصافير
خافتة وكأنها تطلق من حين الى آخر صيحة من خلال نعاسها مرتعشة
مضطربة متأوهة نائحة نواحة وقد تجمعت الآن على أربع أو ثلاث

شجرات من البستان حيث صفعته أمه بعدأن باغتها وهي تنشر خرقها الخاصة ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله على حبل غسيلها الخاص بها المخفي وراء الزيتونـة القديمة قائلة نشازا لا تلعب حول هذه الشجرة لقد رشت أغصانها منذ أن مات جدك وتركها مهملة لا يزبرها أحد ولا يداويها حتى الجنان نفسـه وان تسلقتهـا لسقطت أرضا وتهشم رأسـك نهشيبا اذهب من هنا وقد تجمعت الطيور الآن على ثـلاث أو أربع أشجار تتوسطها التوتة المخلافة الضخمة المجنونة التي كانت تغطي كثافة حجمها كل الأحجام الأخرى فى هذا المكان والتي تحدث ـ من خلال الظلمات المتراكمة ـ تراكما اضافيا مخيفا مهولا مأتميا كثبا كأشباح متربعة ومتحدية ليس فقط ضوء المصباح الكهربائى بل وجميع ما تراكم من أشياء مجاورة ومحيطة به فيشعر آنذاك وكأن الألوان تنقلب تحت جفنيه اللتين ضغط عليهما النعاس فتتغير متعاكسة متضاربة متطاردة فيتجزأ هكذا مستطيل النافذة اليشبي الاخضرار الى قسمين احدهما مستطيل كرزي اللون (التهاب الجفنين عند بزوغ الشمس أو تلاشيها) وآخر مستطيل زيتوني أخضر (غزارة التوتة) وفجأة يبدأ فى الاستماع الى أصواتها الخافتة أول الأمر والتي لا تلبث أن تقوى تدريجيا رغما عن أن الجو لم يتغير تغييرا جذريا وان كان هو يحدس أنه طرأ نوع من التغيير لا سيما وقد أخذ النعاس يتسرب الى خلايا رأسه فيما يبقى الجو يتقلب حسب طقوس معهودة شبه آلية دؤوبة التكرار أي لا يتغير هذا الجو الا بين غسق وشفق ثم تبدأ العصافير ترد رويدا رويدا بعضها على بعض بزقزقة هافتة النبرة وكأنها مترددة متلعثمـة مترطنة باديء الأمر فلا تلبث أن تتجرأ شيئا فشيئا ويتصاعد

نشيدها من أعماق أشجار الروضة عامة ومن أعماق التوتة نفسها خاصة تلك التي ما زالت أغصانها تخدش زجاج النافـذة حيث الحجرة التي عكف هو فيها مدة طويلة من طفولته على ترويض آلاف ديدان القز فيصنفها أصنافا أصنافا ويصنع لها علبا وأقفاصا مزخرفة الخشب معربسة السياج ملونة الأشكال ويسميها أسماء مستعارة عن أبهج الشخصيات العسكرية (طارق بن زياد موسى بن نصير) والتاريخية (الكاهنة يوغرطة) والرياضية المشهورة آنذاك (العربي بن مبارك شريف حامية) والسينمائية (شارلو ألبوطي) التي ما زالت أغصانها تخدش زجاج النافذة فيتصاعد اذن تناغم لطيف يليه تجواق يزداد حدة تسيطر عليه الارتجالية فتأتي الوترية نشازة الى متباينة غير متناسقة ولكن سرعان ما يتغير الوضع الفضائي والوتري بسرعة عجيبة فيصطبغ من جهة الأفق بخط وردي تغشاه بعض الصفرة ومن جهة أخرى يأخذ التناغم حدة تصدع لها الآذان حتى اذا رفع رأسه وقد توغل الفجر أو المغيب الى أعماق الحديقة رأى مواكب من العصافير واقفة على الزاوية الشرقية من سقف المنزل فتبرز بشكل رهيب من الظلال العاتمة في السماء التي لم يتجل بعد لونها الأزرق (عند طلوع النهار) أو لونها الباذنجاني (عند نهاية النهار) العاديين محتفظة على كل حال بطابعها الشاحب الباهت المتناقض مع مئات الرياش الرمادية المبرقعة بمئات الوريقات الخضراء المستديرة المنبثقة من أعالي التوتة التي تغطي كثافتها سقف الدار كله وقطعة كبيرة من سقوف المنازل المجاورة فضلا عن مسافة معتبرة من السماء التي تظهر وكأنها مغطاة بالريش الرمادي المجعد هنا وهناك ببعض الزرقة المعدنية أو الخزامي الفاترة أما الوريقات نفسها فبالرغم من عدم حركتها فانها تتمكن من شق العتمة المحيطة بالأشياء والأشكال

من الجهات الأربع ولم يزل غبش الفجر (أو نسق الغروب ؟)
يتباطأ في انتشاره عبر المحيط كله فيخرق النافذة بعد لحظات
فالزجاج فالحجرة بأسرها وينغرس هكذا في كل زاوية من زوايا
الأثاث حتى أدناها لكن هذه النوعية من الضوء ان كانت تجبره على
اطفاء المصباح فانها تبقى محتوية لا محالة على شيء من طبقات
الليل أو آثار النهار المتبقية التي كانت تصبغ بلونها الحالك أو
المتزارق الكيان الكوني بأسره وكأنه بالعتمة المتبقية في الفجر
والمتكونة من رواسب مادية لا مرئية تسيل وتتقاطر وتتمطر
مما يجعل ريش العصافير المصطفة على السقف وداخل الأشجار
وفي أعماق التوتة التي تعرت من لونها الرمادي العادي بسبب
انعكاس آخر الآثار الضوئية على ريشها خاصة واذ وقفت الآن
كلها على قوائمها الرقيقة فراحت تدب من حين الى آخـــر في
أجسامها قشعريرة براقة لا تكاد العين تبصرها لشدة سرعتها
والتي تصادف كل صيحة أو زغردة انسجاما مع هذه الوتيرة
المتقطعة المتكسرة الفوضاوية ذات النغمات المتصـــاعدة والتي
راحت تتفاقم وتتعاظم رويدا رويدا الى حد الصداع واذا بـ ...
أما قوائم الأحصنة المتماثلة على المنمنمة فكانت تعطي وتقــدم
للناظر انطباعا وهميا يضفي أو يوحي بحركة لا نظير لها وذلك
لتعدد المواقف التي اختارها الرسام المجهــول لعل طارقا قد
أتى به لاصطحابه أمام هذا الزقاق قبل عبوره من قبل السبعة
أو العشرة آلاف مقاتل ، حسب روايات مختلفة أتى بها كبــار
المؤرخين المسلمين أمثال البلاذري وابن قطية وابن خلدون ،
خاصة وان بعضهم تقول بأن أصل هذا القائد (طارق بن زياد)
لعله فارسي وهمداني بالضبط . فيكون هكذا واضع المنمنمة
هو أيضا فارسي الأصل والكل يعلم أن العرب والبربر لم يعرفوا
لهذا الفن سبيلا) فكانت قوائم الخيل المتواجدة على الصــورة

تضفي عليها ، اذن ، نوعا من الحركية الدؤوبة ذلك أن بعضها كان صافنا والآخر كان ثابتا والآخر أيضا كان مائلا وهكذا الى أن جاءت الصورة موحية دالة مدلية عن الحالة التي كانت تعم هذه الفرقة المتواضعة من المسلمين وهم على أهبة الاستعداد لغزو أوروبا أو على الأقل جزءها الجنوبي فيتبين هكذا للمشاهد ومن خلال وقوف الخيل فقط ما كان يخالج طارق بن زياد وأصحابه من شعور وأحاسيس مما أجبره (طارق بن زياد) على القاء خطبة فى جنوده قبيل نشوب المعركة الحاسمة والتي اعتبرها المؤرخون منذ قديم الزمان نموذجا للفصاحة والبلاغة والحماس الحربي : أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله الا الصدق أو الصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ، وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجدة هذا الطاغية ، فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة ، وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت ، واني لم أحذركم أمركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس ، أبدأ بنفسي واعلموا انكم ان صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالارفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا

بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه بأوفي مني وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرفانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ثقة منه لارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته ، واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولي انجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين . أيها الناس : ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، ان حملت فاحملوا ، وان وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال ، واني عامد الى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه ، فان قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا ، فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير . واياكم أن ترضوا بالدنية . ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلة ، وما قد أهل لكم من ثواب الشهادة ، فانكم ان تفعلوا ، والله معكم ومفيدكم تبؤوا بالخسران المبين وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين وهاءنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتي .) ... ما كان يخالج القائد العسكري من شعور وأحاسيس اذن ، وهي عبارة عن مزيج من الشجاعة والخوف أمام المجهول فأخذته هو وأصحابه ، منذ

البداية ، قشعريرة الانتظار ورجة الانتصار ومتعة الانتشار ورعدة الاستبشار ؛ لذا سرت العدوى هذه الى الخيل أيضا ، فبدت وكأنها مرتبكة ــ على المنمنمة ــ متعثرة ، متصمدة ، متعصبة ، فأوحت بالتالي للرسام بالهام عظيم وحنكة هائلة ، فجذبت هذه المنمنمة لب الوالد وهبلت قلبه وأشغلت روحه ، فعلقها على جدار المكتب ، وأرادها نموذجا لبطش العرب والمسلمين ورمز الشجاعة ؛ أي شجاعته هو نفسه وتقاذ بصيرته وحدة ارادته • فلم يكتف بها بل بات يبحث عن سيرة طارق ويفتش ويتعب ، مشغوفا بأتفه التفاصيل وأصغر الحوادث التي عاشها بطله هذا • فراح يقدمه مثالا ليس فقط لأولاده بل ولكل أفراد العائلة الذكور منهم بما فيهم أخوه العم حسين ذاك الجبان الطاغية الجاهل الأمي الثرثار المتطفل النهم الجشع ؛ فأصبح طارق بن زياد لا يفارق شبحه المنزل أو المخزن أو المكتب الى حد أن الأولاد أخذوا يكرهونه لكثرة ما مقطهم هلواس أبيهم (أو ••• عمهم) حسب القرابة ؛ ذاك الذي راح يبحث عن النصوص متلهفا ،حتى اذاما عثر يوما على نص لابن خلدون فى كراس أحد أبنائه ، حول فتح البلاد الأندلس من قبل طارق بن زياد ومعركة خليج الزقاق التي انتصر فيها على القائد القوطي لرذريك الذي مشىعلى رأس جيش يزيد عدده عن الأربعين ألف جندي حسبما قال ابن خلدون ويفوق التسعين ألف حسب البلاذري فى كتابه البيان المغرب ؛ راح اذن يراقب الترجمة من العربية الى الفرنسية شاغفا بها الى حد أن الابن ضاق ذرعا فصمم على تركه يقوم بالعمل وحده ، مكتفيا بالتظاهر والتصنع دون أن يقوم بأي حركة أو مجهود والأب يقول ترجم ترجمة حرفية أولا ثم نرى ماذا ندبر فيما بعد • مكررا يا له من نص ممتاز ، بورك استاذك هذا ••• الحمد لله لا زالت الغيرة عامرة

فى قلوب العرب ••• ترجم يا ولد • لكن الصبي تركه يتخبط فى نشوته فيشرع فى الترجمة الحرفية هذه ، جاهرا بصوته : محدقا بعينيه ، غارقا فى حالة وجد عارمة ، قائلا مكررا : وأجاز طارق البحر سنة اثنتين وتسعين : en l'an 92 باذن من أميره فى نحو ثلاثمائة من العرب

Tarik s'embarqua avec l'assentiment de son chef Moussa accompagné de trois cents guerriers arabes environ

وانتهب معهم من البربر زهاء عشرة آلاف :

leva parmi les berbères une armée d'environ dix mille guerriers

كانت قوائم الأحصنة تعبر عن الخطر الذي كان يهدد طارق بن زياد وأصحابه وهم على أهبة الاستعداد للشروع فى معركة خليج الزقاق الحاسمة • أما الفرسان أنفسهم ـ بما فيهم طارق بن زياد ومساعده طريف بن مالك النخعي ـ فلا يحركون ساكنا ما عدا النافخين فى الأبواق وضاربي الطبول وحاملي الرايات ، أي أغلبية الكوكبة ••• بأعينها تظهر على صغرها جلية واضحة براقة مناقيرها الوردية الليسونية فذهبت تتضخم وأجسادها تتعاظم أيضا بزوال آخر طبقة ليلية متنافخة وراحت تجعد ريشها الذي برز نهائيا وقد طغى على رماديته لون غريب يمازجه الأزرق الفاتر والخزامي مما زاد فى تثاقلها وحجمها وعددها وهي هكذا على أهبة الاستعداد للانطلاق مجعدة ريشها منهمكة فى تسريح زغب أفراخها فيما الذكور منها راحت تتبختر على حافة السقف تمشي الهوينا فى عملية اغتزال وتجاذب ودلال وتغنج مما يزيد فى بريق أعينها الصغيرة الكحلية المشتعلة الملتهبة البراقة التي تذكره بحجرة من الماس العتيق يتوسط طوقا ذهبيا كان لا يفارق جيد أمه وتبقى أعين الطيور تحملق مدة دقائق طويلة مملة بنظراتها الفارغة اللامعبرة الكئيبة وكأنها تحمل فى مآقيها كل دموع العالم عامة

ودموع أمه خاصة تلك التي بقيت هكذا مجمدة منذ تلك الحادثة التي صفعته فيها وقد باغتها وهي تنشر خرقها على شريط الغسيل المخفي وراء الزيتونة التي لم يعد يزبرها ولا يهتم بها أحد وكأنها تحمل ــ اذن ــ كل دموع العالم ودموع أمه التي بقيت هكذا مجمدة ساكنة معلقة وهي واقفة في البستان ترفع ذراعيها نحو الحبل فاكتشف هكذا وبدون أي وعي ابطيها الحليقين المعطرين اللذين احتفظا ــ رغم كل شيء ــ بآثار الزغب النحمية وقشرتها المحثرية المبرقعة مساحتها بحباب تركه الشعر المنتف وكأنه نوع من القشعريرة التي داهمت جسمها فجأة من فرط ما فزعت وهي تجد نفسها مكشوفة مكسوفة فينتهي بها الأمر الى صفعه متعللة بخطر السقوط من الشجرة العاقم الذي يهدده فيبقى هو بدوره مشدوها لا يفهم ما حدث له وقد أدمى أخمص قدميه معلم الكتاب لرفضه كتابة آيات مما تيسر من سورة البقرة ويسألونك عن المحيض ...

وهو جامد اذن (واقف ؟) بالقرب منها يسترق النظر نحوها ولم يعد يشعر بوخز الألم الذي ينخر أقدامه وانما بحرقة الصفعة فقط تلك التي راحت تلتهم خده الأيسر وهي أيضا لا زالت واقفة رافعة يديها وذراعيها نحو الحبل والخرقة ... فيقول متحدثا بهدوء وسكينة وكأنه (شمس الدين) يتحدث الى نفسه عبر حوار داخلي غريب قائلا اذن ما كناش نعرف كيفاش نتصل بالجبهة فقررنا أن نذبح بعض الجنود من اللفيف الأجنبي ودخلنا للتبرنة تتفاعل السكر وقد كنا قاعدين بجانب بيت الماء . مرة مرة وواحد منا يمشي يطير الماء ويولي يحكينا عن الوسخ والنجاسة والعفن والدنس . والمرحاض تركي النمط وكنا خايفين ما عدنا غير موس واحد قلنا ما عليش ما يستاهلو غير الذبح . واطلبني كمال قلم ودخل للمرحاض وبعد عاد وقال فيوذني : كتبت W. L'ALGERIE

قتلو انت موش كيحالتي انت تعرف تكتب بلا غلاط فروح أكتب
F.L.N. VAINCRA ! احنا ميتين ميتين • وحتى لذركة ما زال
عندي قلم الرصاص اللي كتب به كمال ؛ تشفى عليه صاحبك
كمال ؟ كان شباب وما تفوتش عليه حية غير تشوفو وتطيح ف
الفخ ••• بصح وحد العنين عندو كمال شوية خواف قتلو ميتين
وربي كبير • عاد يضحك ويبكي ما اعرفناش كان سكران والا
خائف لثنين (ربما) كيما كان يقول الشيخ بابا ••• موس واحد
وهما خمسة كيفاش راح انديرو ؟ خمس حلالف وكمال هو اللي
اعرف كيفاش يجلبهم لينا ؛ يا خوية • بالسيف شعره أشقر وعينيه
أزرق والكرافات حمرة تضرب تعيط يا خوية ••• تعرف لذرك
نشوف فى قراعي البيرة 33 LUXE اللي كانوا محطوطين على
الطاولة • جاء الخنزير الأول وقال A VOTRE SANTE
قتلو فى قلبي ابكي على يساك اللي ما تعودش
تشوفك • قرب قرب • موس واحد وحافي
شكون كان يقول ؟ شكون يصدق والله يا طارق خوية • كمال
صحيبك كان حط الحطة كرافات حمرة وسباط شبكوني تشفى
عليه أصفر وأكحل ••• كنت ديما تتمسخر عليه وين حيو ذركة ؟
راك تشوفو ؟ سلملي عليه ؛ كاش نهار نزدمو عليه HAUT
LES MAINS نخلعوه بصح وقت اللي يلزم توليلو الشجاعة •••
كذبحنا الأول فى الظلام وسط المرجة عادلي يزهر كالصيد سي كمال
بصح يا خوية راجل وقت الشدة تلقاه ••• كان يرعش بصح
اعطاه • (سقط وخر ميتا على الأرض) كيما كان يقول عمك
الحسين الله يرحم •• بعد واحد منهم غاضني : سبنيولي مسكين
عاد يقاقي كالدجاجة : .VIVA F.L.N بصح منافق حب يسلك راسو
••• وامبعد كل واحد راح من جهة • قلتلهم غير الهربة تسلك •

أنا اهربت عند خالتي بية أمك • وكمال تعرف وين بات هـذاك الليلة ؟ عند جاكلين زوجة القبطان تشفى عليها (رائعة الجمال) كيما كان يقول بابا • (وفى قعر ديارهم •) بصح فحل ! فرنسا عسرها ما حكمتو كمال •• موش كيما أنا بصح عامين وهي عقابي • حبسوني فى واحد المدرسة جوابه منعة فى جبل أوراس قمجة وسروال خوك ومكتف بالحبل • بصح البرد قتلني قالوا لي قو قتلهم جيبولي علبة طباشير صفـراء • (بهت الذي كفـر) • L'effet de surprise ! هاو امالا كيفاش ؟ نلعبو والا بصح • كمال كان ما يعرف غير يمشط شعرو • كنا نقولولو حرقص يرقص يا كمال بصح حسبنا بالجلد ••• افحل والله افحل ••• بصح فين حيو ؟ قلولي دائما معاك ما يخطيكش ••• كاش نهار نزدمو عليه
L'effet de surprise ! هو كما كان يقول haut les mains !
والا بلاش • سباطو شبكوني ••• تعرف خيط راكب على خيط نص أصفر ونص أكحل ••• خالتي بيه الله يرحمها فى الأول أعطتني كف وقاتلي يا مجنون يا بو دباير روح شوف صحابك يسلكوك ذركة ••• أنا ما انخبيكش • تحب نباصيو كلنا ؟ قلتلها ما عليش ندبر راسي وجيت خارج •• عند ذاك تلاحت علي وعنقتني وابدات تبكي ••• كيفاش يا كبدي ، وين تروح ؟ كيفاش يا كبدي ••• كان تخرج منا باصيت ، اقعد ••• بصح كان يسمع باباك ••• قلتلها : هذاك خاين وخواف ••• كان يبيعنا نقتلو حتى هو ••• زادت اعطاتني كف آخر • كيفاش مهبول تقتل باباك ؟ قلتلها بصح تعرفيه يا خالتي باية خبيث • قاتلي اسكت ، باباك تحبو ولـو بخنوتنو ، بصح وين راح نخبيك يا كبدي وطارق غير هاذ ليمات . انت واياه ما تعرفو غير الزبايل • عينيها تعسرو بالدموع وفاضوا ولحمها شوك • ندمت اللي جيت عندها قلت مسكينة حصلت في

وما عرفت كيفاش تعمل ... قلتلها خليتك بالسلامة خالتي باية معليش نسلك روحي . زادت عطتني كف آخر .. ولات كالمهبولة. ما عرفت وين ادور . بصح امرأة عظيمة . (رهيفة الشعور) كيما يقول بابا الله يرحمو . وتعرف وين خباتني ؟ بصح حكيتلك هاذه الحكاية ألف مرة وانت عامل روحك ما اعلابالكش ... فلي اسكت وبراكة من الهدرة ... والا ذرك ننسى روحي ونعود نزيد ونكبر وننفخ ونكذب حتى يقتلني الزوخ يا خو والفوخ ! بصح الحكاية متاع السطح نهار جاو العسكر (يوم جاءت الطامة الكبرى) كيما كان يقول الوالد ... تشفى أطارق خوية ... كنت سمين واحنا نسميوك بابا عجينة وكال الطمينـة وبوطـي BUD ABBOT كضربني القبطان شفت عينيك ... كان لقيت تكلو كان كليتو . بصح وعلاش كنا نستعملو الطباشير الأصفر ؟ كبصقت عليه ؟ آه . تشفى ... كيفاش تقول هذيك الكلمـة متـاعك حلـوة ... (بهت الذي كفر) آه ... رائع ... بصح الكفوف متاع أمك ما زالوا يحرقو في الذركة ... وامبعد كيحكموني هما يضربو ويعذبو وأنا ناكل فى الطباشير الاصفر .. يعني نتخيل ... كله خيال ... كله خيال ... واحد انهـار صفعني واحد حركي خبيث كان يقود لهم ... قتلو شـوف ما خفتش من الكفوف متاع خالتي بية ومن الضرب متاع بابـا الحسين والفلاقة متاع المدب سيدي صالح ، تشفى عليه آه طارق خوية ؟ اما لا قتلو ما خفتش الكفوف متاع خالتي بية حتى نخاف (وكيف يصاب المرء بمرض الخوف هذا يا ترى ؟ أريد أن أصاب به فأتخلص من هذه الشجاعة العظيمة . نهائيا ... يا ريت ...) من الكفوف متاع واحد خبيث كيفك . طز وألف طز . بقى يشوف في كالمعتوه وبعد خلاني وراح ما زدتش شفتو من هذاك النهار ... عمتي فاطمة كانت فحلة هي ثاني هذاك

النهار (الطامة الكبرى) جاو يفتشو على باباك . بصح (رجعوا بخفي حنين) كيما كان يقول أبوي ... آه عمتي فاطمة !
Champion ! والله امرة عظيمة هي ثاني ... كنت أخاف من نابها
هذاك المزنجر ... يا لطيف . واعرة بصح وقت المصائب تقول :
شدة وتزول ... صبورة . كانوا يسميوك بابا سمينة . بوطي .
طوطي . واحد نهار جاء واحد يسأل عليك قالي زوال دراسته معاك
وما انساش اسمك (المستعار) هذا : البوطي (BUD ABBOT)

حبيت نصرعو بدماغ . تفكرت كيفاش كنت تبكي كيف الأولاد يمتسخروا عليك ويجريو وراك : بابا عجينة وكال الطمينة . بابا سمينة وكال القنينة . ايه ! ذكريات داعبت فكري وضني لست أدري ... آه . كيما تقول العجوز . سلملي كثير على كمال ... فلو شمس الدين يسلم عليك الـ Fiston ذرك يفهم ... كنت أصغرهم ... تعرف ثلطاش سنة وما كملوش نهار اللي ذبحنا فيه العسكر متاع فرنسا ... وكمال بصباتو شبكوني وكرافاتو الحمراء ... كيفاش خلاوني ندخل للتبرنة ؟ مكتوب وربي كبير . خليني نسكت والا نبقى نحكي حتى لصباح ... ذكريات داعبت ... أصفر ثم أشهب ثم أصفر من جديد عند مرور الرافعة أمام قرص الشمس المفلطح ... لكن هذه الصفرة تبدو كأنها مبيعة أو ــ بالاحرى ــ محبحبة . مكونة من مليارات الحبيبات المحلقة في الجو كزغب الزهور الصفراء ، أو غبار الصواح أو طلاء الفراشات المتبقى على الأنامل عندما يقبض عليها بين الأصابع . لكن العضو المتحرك للآلة يبدو وكأنه مجرد خط أصفر مرسوم على صفيحة السماء وهذا بسبب السرعة المحركة . فيصعد اذن هذا الخط الأصفر بل ــ بالاحرى ــ الأثر ، المخر . الشطب . لكنه سرعان ما يحسى ويبقى مجرد

انطباع باهر ، خاطف ، على الرغم من تواجد الرافعة بجزئيها المكونين من زاوية مثالية من 90 درجة ، اذ أن الجزء الأول الثابت يقدم للناظر ــ من وراء زجاج النافذة ــ فكرة الانغراس والجزء الثاني المتحرك يعطي فكرة الانتشار والانبساط والانعراض • وكل هذه الانطباعات التجريدية تتكون فى ذهن الرائي بسبب عدم قدرة شبكية العين على متابعة التسلسل الوميضي والساحق الذي تقوم به مختلف أجزاء الرافعة المتنقلة عبر الجو • وأيضا بسبب هذه الآلة الصفراء (POTAIN) أثناء هذه المرحلة من العبور ، فى الوقت نفسه الذي تتوسط فيه الشمس بين الرافعة والعين • وتكون نتيجة هذا كله أن الذهن لم يستبق من كل هذه العملية سوى انطباع عابر • خاصة عند اختفاء العضو المتحرك للآلة وخروجه من المساحة التي يؤطرها زجاج النافذة • وكذلك الأمر بالنسبة الى الرافعات الجديدة التي ركبت مؤخرا ، والمطلية باللون الأحمر • فهي تنفسخ شكلا ولونا كلما مرت أمام قرص الشمس ، فيغيب الشكل ويتلاشى اللون ولا تبقى الا الانطباعات التي تتناحت الواحد تلو الآخر ، فتشغله هذه الحركة السرمدية الدؤوبة عن عمله وتسحره وتفتن لبه ، فلا يصبر على النهوض والاقتراب من النافذة ورشق النظرة نحو الورشة التي لا يبرز منها سوى رافعاتها الشامخة ، الحمراء ، الصفراء ، الشهباء ، الوردية ، ثم الصفراء من جديد ، ثم الحمراء من جديد أيضا ، فتنخر (كل هذه الانطباعات الخطوطية) رأسه خاصة وأنها تتحول الى سهام متصاعدة من قعر الورشة نحو السماء ، محلقة ، منتشرة ، منبسطة ،مضمحلة ، متمحية ، متطايرة ، متماطلة ، كأني به ــ وهو يقترب من الزجاج ــ يحس بشعور ارتجاجي لا يفهم سببيته بالضبط ، لكنه سرعان ما يستنبط أن الأمر يتعلق بانعكاس سحابة متنقلة توهمه بأن النافذة تتحرك هي

أيضا وذلك لعدم توفر أدنى سمة وأصغر اشارة تساعده على تنظيم الفضاء المنذثر أمامه بشكل محكم • فكان هذا الانطباع اذن ناتجا فقط عن تحرك السحابة شاقوليا بالنسبة الى العمودية التي يكونها جسمه ، لكن سرعان ما تتوقف الحركة الطفيفة هذه فيشعر وكأن النافذة تعود من جديد الى ثبوتها ، ذلك أن السحابة استأنفت مسيرها فى صمت مهيب ، ولن يبقى ، تدريجيا ، فى الاطار الزجاجي هذا ، سوى الزرقة • واذ هو واقف أمام النافذة ونظرته تنفلت منه وتحاول الانغراس فى الورشة ، فتدخل الممرضة وتقول له شيئا لا يفهمه ، لكنه يطأطىء رأسه ويستمر واقفا ، مشدوها مذهولا ، كأنه لا يفهم ، لماذا لا يرى شيئا من العمل الذي يجري فى المبنى ، سوى هذه الرافعات الصفراء (BOUIGHES) والحمراء (POTAIN) وبعض الهياكل الاسمنتية التي تبقى غامضة لعدم امتلاكها أشكالا معينة ، خاصة وأن الورشة قد أحيطت بسياج من الزنك اللامع ، تمكن من اغلاق كل زواياها وذلك لأن الحاجز المعدني كان يغطي أغلب المساحة نظرا لانتشاره شاقوليا على عدة أمتار ••• كان صاحب القرار يقول هذا ابنك حين لمحته يدنو وينفخ فى سماق اللوح يفرش لي الحصير يصوغ كفي من رنين الحرف / الحرب • كانت الحرب :

L'ALGERIE C'EST LA FRANCE ET LA FRANCE NE RECONNAITRA... أين طفولتي ؟ اختبأت حين طاردني الأطفال زاعقين ورائي بابا عجينة وكال الطمينة • وكيف أقص عن غسق يصاحبني الى باب الكتاب ، كما كانت تصاحبني عقدة السمنة فأحاول ما بوسعي التخلص من تناول الطعام ؟ فأفشل فشلا ذريعا فتزداد الحشورة التي كنت مصابا بها قوة • فأصبحت حياتي اذذاك رمضانا متعاقبا متواصلا لا يعرف شعبانه أبدا • دخلت الجامع السفلي عند

الصحن . كان الضوء منحدرا وجلبابي يحز فخذي السمينتين فألفه حول قدمي المدميين . لمحت المؤدب الضرير يختار لي قصبا فيقول أكتب . ولم أكتب . قلت أمي طاهرة عفيفة . قال أكتب : ويسألونك عن المحيض قل هو أذى قلت لن أكتب ، أمي طاهرة .

قال أكتب والا فلقناك . قلت أضرب . فضرب وأدمى القدمين . ثم مشيت على الجرح راكضا اليها أطالب بحقي فى فهم هـذه المعضلة ، فوجدتها فى قعر البستان تنشر عسيلا مشبوها فيه . صفعتني . قلت أنت طاهرة . أنت عفيفة . ثم مشيت . تركتها تزمجر وتحكي خرافة الجد الشيوعي الذي مات وأهمل الزيتونة المفتقرة الى الزبر واللقاح وبعض الماء الزلال . كان جدي قد أتى بقارورة من ماء زمزم عند عودته من الحج فأهداها اياهـا . فأتخمتها بأوراق الورد وأضافت اليها قطرتين من زيت الزيتون الدسم المخضوض . لم أذكر حنين أصابعي للهفة القلم والحبر واللوح والسماق ، منذ ذلك اليوم المشؤوم ، والشهوة الأخرى المبهمة ، على شفتي . بكيت خجلا من حالها ولم تفهم هي معنى تساؤلاتي : هل أنت طاهرة ؟ قل هو أذى . قل هو أذى . قل هو أذى . قال أكتب . قلت لا . قالت أسكت . قلت لا . نسيت أصابعي بين الذهول والانبهار والتساؤل الفقهي . قلت لـك القرار يا شيخنا . طفولتي انتسبت الى محنتها ، أنا المقصى من عتبات الكتاب ودار أمي . طلعت الى السطح . ناديت شمس الدين : قلت أكتب W. F.L.N. كتب . قلت : لا تستعمل الا الأصفر ، فهذا لوني . قال : نعم . قلت أكتب F.L.N. VAINCRA قال : أمل علي ، يا عالمنا . أمليت الكلمتين حرفا حرفا . قال : أنا لا أفقه شيئا فى املائهم . قلت : ما عليش تكبر وتنسى ، يا شمس الدين يا وليد عمي . استعملنا الطباشير الصفراء .

تكدس غبارها على سلاميات أصابعنا • قلت : حذار ، نظف يديك قبل النزول والا ضربونا • كتب شمس الدين F.L.N. VAINQURA (QU) محوت وعوضت عنهـا بـ (ɔ) • قلت : أسرع يا حمار • قال : املاؤهم لا أفقهه • قلت : ولا املاؤنا أيضا • لن أعود الى الكتاب ، سوف ألتحق بالجماعة • فقهقه في وجهي • قلت : ما بك ؟ أتظنني جبانا ؟ لا • لكنهم يرفضونـك بسبب سمنتك • صفعته • بكى شمس الدين • قلت مغتاظا : لا تعرف الاملاء الفرنسي وتهزأ بي يا حمـار ؟ فقهقـه وكتب نكلـة : ABATE LA FRANSSA قلت يا لك من حمار • هل تعلم أن موسى بن نصير كان مفرط السمنة حتى أنه كان لا يكاد يمشي على رجليه ، فيحمله جنده على ظهورهم من مكان الى مكان ؟ أتعلم هذا يا حمار ؟ سكت • أضفت : أنا أسرع من علي ميمون نفسه • سخر مني ببرودة ليس من بعدها برودة • قلت : أتراهن ؟ لنتسابق • تسابقنا على السطح والمدينة تدور من حوالينا متراصة العمران • كان النصر نصري • قال : لك يا طارق بن نصير ، صفعته صفعة أخرى • كان هذا عنفي ••• تفور ضفاف الرمال بالرؤوس التي قطعت غدرة ، فاستدارت الأرض بها • دارت الأرض دورانها • وما زلت أذكرها في متم الصبا وتوالي الشهور • كانت السمنة تؤلمني • حتى شمس الدين ، وهو شريك طفولتي ، حتى هو راح يسخر مني • لماذا ؟ الشهور ضاقت بأجداثها • وأنا ضقت بمحنتي • جاءت الحرب • رأيت الغزاة يطوفون حولي • كتبت بالطباشير الصفراء • رأيت المدينة مكتظة من أعلى السطح • رأيت النساء وقد خرجن على غير عادتهن • فصلن حدود المساء بملاياتهن السوداء • كانت أمي احداهن • قلت لشمس الدين : أكتب ! ! ! W. LES FEMMES ! رفض • كتب : : W.M.O.C.

صفعته صفعة أخرى • سقطت متظاهرة • انتشرت فى الليـل صلاة الجنازة : JAMAIS D'AUTRE AUTORITE QUE LA SIENNE.
••• كانت الورشة تتحدى بهيكلها قوانين الهندسة المعماريـة وقوانين التوازن • بعد بضعة أشهر ظهر الاطار العام للبناية متجليا ببعده السديمي المتثاقل ، المثقل ، المتنافخ ، المنفوخ • وعند غروب الشمس تأتي الطيور قادمة من شجيرات البستان العمومي • أسراب من الطيور تقع فى الحبائل المصنوعة من الخيوط الكهربائيـة ، المنتزعة من أعمدة الانارة • وهي حبائل ينصبها أولاد الحي اذا ما احتدم غروب الشمس • فتنتشر فى السماء التي راحت تفقد من ازريقاقها • خطوط وردية خاصة وان الربيع قد حل دفعـة واحدة فتجن الطيور المسرنمة الفاقدة وعيها المشهور وحدسها المعهود وحذرها الغريزي ، فتأخذ تتمعش فى الشمس الفاترة ، الهابطة باتجاه البحر • ويبقى الأطفال ينصبون الكمائن للعصافير المذهولة ويتفننون فى تحريك المرآة الصغيرة التي يصقلونها بكبير عناية ، فيبهرون الطيور المحلقة فوق الورشة الضخمة وكأنها فتحت شرخا ضخما فى وسط المدينة ، قبالة نافذته التي يبقى من ورائها متربصا وكأنه يتلصص ليس فقط على الورشة الضخمة والحديقة العامة والطيور والأطفال وغروب الشمس ، بل الحياة نفسها ، أيضا ، فيشعر بأنه سجين وراء هذا الزجاج المقوس ، ويبقى هكذا فى شبه غيبوبة قصيرة ، ويدخل عليه شمس الدين ويبدأ يقص ذكرياته ، هو شريك طفولته فيدعه هو يتكلم حتى تسيطر العتمة سيطرة تامة على الحجرة • فيسكت ابن عمه ويطالبه بسرد أخبار رحلته الى مدينة جبلطارق ، بصحبة أحـد أصدقائه : كمال • كمال هذا الذي كان يصطحبه فى سن المراهقة ، ويمشي دائما برفقته ، جنبا الى جنب ، صامتا ، كئيبا ، أبكم ، ذا مقلتين

مغرورقتين على الدوام ، صامدا ، صابرا ، ممشوق القد ، رائع الجمال ، رهيف الشعور ، لا يمر عليه يوم الا ويعشق (أو بالأحرى تعشقه) امرأة جديدة . كان رأسه يكاد — وهـو يصطحبه — ينطح السماء لطول قامته . يمشي بجانبه . لا يفارقه قط . يسايره ، شاهرا ربطة عنق عريضة فصيحة ذات ألوان صارخة ، وقد أصبحت موضع سخرية منه : لا ، لا . هذا من سوء الذوق ... ما عندك ذوق ولا نوق ، يا كمال . ولكنه يتعنت ويصر على اشهارها في مهب النسيم ، فيبدو وكأنه فخور بها ، قائلا : والحذاء ؟ ما رأيك في الحذاء ؟ انه من صنع ايطالي . لا تغلط ولا تغرنك نفسك يا صبي . رد بالك يا بني ... ويجيبه هو : رديء هو أيضا حذاؤك . شبكوني ... ما تحشمش ؟ واش يقولوا النصارى ...؟ لو رآك أستاذ اللاتينية المسالم :
(LAUDATE PUERI NULLA PAX SINCERA IN FURORE !)
ترجم يا كمال . أنت من خيرة تلاميذه ومن المقربين اليه (ابتهجوا يا أطفال . لا ليس سلما نزيها يدوم اذا ما فرض تحت وطـأة الغضب .) لكن غضبنا نحن هو الحرب يا كمال . علينا أن نتخلص من هذا الأستاذ المسالم . الخداع ، الخائن ... لنذبحه ... كانت الحرب تسير على قدم وساق (صورة مبتذلة . يجب الغاؤها من قاموسك ، يا كمال) . حذاؤك هو أيضا رديء . أصفر . أسود . ما هذه الألوان ؟ بهت الذي أساء الذوق . أتريد أن تظنك النسوة مهرجا أو بهلوانيا ؟ ... آه ، لو كان لي عيناك وزرقة مقلتيك البنفسجيتين لما ... .وهو : واش بيه الصباط ؟ انك تغار مني . وكتب طارق الى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم فحركته الغيرة ، وكتب الى طارق يتوعده بأنه يتوغل بغير اذنه ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به .

أنت أيضا تغار مني ، يا طارق . ما به حذائي ؟ انه من الطراز الرفيع . مصنوع فى ايطاليا . أنت تحركك الغيرة . وكتب طارق الى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم فحركته الغيرة . فحركته الغيرة . ترجم ، يا ولد .

القســم الرابع

أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم . وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هـذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكـم الا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم وان كانت لكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم ... قال الأستاذ بن عاشور : « ويشير صاحب كتاب تحفة الأنفس الى خطبة طارق بن زياد فى قوله : لما التقى العرب والقوط فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم فى الشهادة ويبسط فى آمالهم ثم يورد نص الخطبة : أيها الناس : أين المفر..؟ ويستأنف أستاذنا قائلا : وتنوه الرواية الاسلامية بما كان لهذا الخطاب من أثر فعال فى اذكاء همم المسلمين وشجاعتهم وثقتهم ودفعهم الى طريق النصر والظفر . لكنه علينا أن نرتاب أولا فى نسبة هذه الخطبة الى طارق بن زياد ، وثانيا فى مناسبة القاء هذه الخطبة من قبل طـارق . اذن النسبـة والمناسبـة يا أولاد ! ويستطرد الأستاذ ، وقد بدأ الشك يداخلنا والقلق يشق طريقه الى أنفسنا ، قائلا : « ان معظم المؤرخين المسلمين ولا سيما المتقدمين منهم لا يشير اليها ، ولم يذكرها ابن عبـد الحكـم ولا البلاذري ، وهما أقدم رواة الفتوحـات الاسلامية ، ولم

تشر اليها أيضا المصادر الأندلسية الأولى التي تحدثت عن واقعة الزقاق باسهاب وعن سيرة طارق بن زياد ببلاغة • لكنها لم تشر الى هذه الخطبة المزعومة • أرأيتم يا أولاد ؟ » قال أحدنا : ولماذا حفظناها ان هي مزعومة ؟ قال الأستاذ : « اخرس يا بليد • انما لجمالها وروعة بلاغتها ، وأسطوريتها لا تزيدها الا قوة وأهمية »• استأنف الأستاذ متكلما • كنا كالمسعورين • كيف يجرؤ هذا الأستاذ على أن يقدم مثل هذه الأطروحة فى ما يخص هذه الخطبة وقد حفظناها عن ظهر قلب وأصبحت خطبتنا وملكا لنا ؟ فكرنا أن مسا من الجنون قد أصاب الأستاذ بن عاشور • كيف يجرؤ الرجل على مثل هذه الأقوال والحرب دائرة رحاها فى البلاد ، ونحن فى حاجة الى مواد فكرية مثل هذه الخطبة لتغذية أرواحنا وتعزية أنفسنا وتقوية أذهاننا • أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم • وليس لكم والله الا الصدق والصبر واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ••• يستأنف الأستاذ ويمضي متكلما غير مبال بالصاعقة التي انقضت على رؤوسنا : « اذن لم تشر الى هذه الخطبة المصادر الأندلسية كما سبق وقلت ، ولم يشر اليها ابن الأثير وابن خلدون، ونقلها المقري عن مؤرخ لم يذكر اسمه وهي على العموم أكثر ظهورا فى كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين • » رأى كمال فى كلام ابن عاشور خيانة • نظر الي وأشار الى أن لا مفر من قتله • أشرت اليه بأن العدو أمامنا • تابع شيخنا كلامه ، قال : « وليس بعيدا أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة ، فنحن نعرف أن كثيرا من قادة الغزوات الاسلامية الأولين كانوا يخطبون جندهم فى الميدان • ولكن فى لغة هذه الخطبة وروعة أسلوبها

وعباراتها وعبرتها ما يحمل على الشك فى نسبتها الى طارق ... »
فكانت يومها الطامة الكبرى .

ظل الليل يزداد عمقا ومتعة وبدا الشفق بعيدا وقريبا معا وفى وقت واحد . اتكأت الشمس على الجدار المقابل . وما لبثت أن اندثرت اربا اربا داخل التوتة . وكأنها بأبهتها تلخص التكوين الكوني كله . لكنه كان يعتبرها مجرد مأوى للفراخ ومغذى لدود القز . وينقصف الماضي فى ذهنه مثل الغصن الذي نخره الدود ، فراح ينفلج . أخذت أغصان التوتة تخدش زجاج أحد مصراعي النافذة . ظل الليل يزداد عمقا . يأتي طائر مرفرفا . زهوانا ، مزهوا ، باسطا جناحيه وكأنه يخشى سقوط السماء عليه (أي الجسيمات الليلية التي تتكون منها المادة الجوية بعد غروب الشمس) كان عنق أحد الطيور قد استمسك بالأفق . فيكون ريشه زخرفة عربية تشوه خضرة المحيط . خفت الزقزقة . لعلها تبعثرت فى متاهة لا حد لها . ازداد الليل متعة وبدا الشفق قريبا وبعيدا فى آن واحد . تصاعد القمر . فضيا . لماعا . مفلطحا . كادت التوتة تلتصق بجدار الدار . كان يكاد أن يمسها بأطراف أصابعه . خاصة اذا ما هاج هيجانها ، فى فصل الصيف . يكاد أيضا أن يلمس العصافير التي كانت تلجأ اليها وتختبىء فى قعرها وبين ثناياها عند الأصيل . تصعد اليه وشوشة الطيور المختفية ، المتخائفة . يصله حفيفها وتأوهاتها وزقزقاتها الفاترة . تلاحقه تنهداتها وخفقاتها واخلاجاتها الخافتة ، وذلك قبل هبوطها فى بئر النوم أو النعاس العميق ، أو ، بالأحرى ، التناعس المتخاذل . تصله كل هذه الآثار الصوتية قبل أن تعشش الفراخ فى عتمة التوتة الضخمة ، العتيقة . تلك الشجرة التي اشرأبت أغصانها حتى كادت تلتصق بنافذته ، وتكاثرت أجنحة عصافيرها

حتى كادت تغطي الحائط المقابل كله • فيتخيلها ، وهو طفل ، حرداء ، متنائمة بين الأغصان والأوراق ، متكلفة بين الأنغام الأداءات والهمهمات النابعة من حناجرها المتكاسلة • كان فى صباه يظن أن العصافير هذه تمثل أنين وعويل وبكاء وظلامة الكون والبشرية المتناهكة ، المنهوكة ، التعيسة ، انتسبت طفولته لمحنتها منذ ذلك العهد • قال له شيخ الكتاب أكتب ويسألونك عن المحيض • رفض الكتابة • آنذاك لمحه يدنو منه وينفخ فى سماق اللوح • يفرش له الحصير • يصوغ كفيه من رنين الحرف • يسترق الطفل السمع الى انفجارات الحرب • اختبأت طفولته • يقول الشيخ هات رجليك • يرفعهما • يضرب الشيخ ضربا مبرحا يقول أبوه للشيخ الضرير : أحاسبك بالجلد • بالعظم • بالدم • (أفديك أنا بلادي بدمي •) كتب هو هذا الشعار على سطح المنزل ، كذلك • اختبأت طفولته • يهرول عند الغسق نحو الكتاب السفلي • عند الصحن كان الضوء منحدرا • وجلبابه ملفوفا حول القدمين المنزفتين دما • أين ابن عمه ؟ كان يتأرجح وسط الأطفال وينتظر ساعته لينقض على الشيخ الشرير ويعضه • كان فى صباه يظن أن بكاء العصافير يمثل ظلامة البشرية المتآلمة ، المتنائحة ، المتناهكة • دائرة المصائب تكاثرت حلقاتها • دخل البستان • وجد أمه فى قعره • راحت الأفراخ فى قعر الأشجار تبكي لما صفعته هي بدون ما سبب يذكر • كانت التوتة تزخر بالعصافير المغردة وكأنها تردد فاجعة العالم وأوجاعه ومآسيه وكآبته وعزلته والحرب الضروس تضرب أطنابها • يقول الشيخ هات رجليك • يضربه ضربا مبرحا • يهرول الى الدار • يجد أمه فى مؤخرة البستان تنشر غسيلا • تصفعه أمه • تقول لا تتسلق شجرة الزيتون هذه والا سقطت على الأرض وتهشمت

عظامك • توغلت السويداء في عظامه وفي أعماقه • لم يكن من مبرر للشيخ وغطرسته ولا من مبرر للأم وخجلها • انقض عليه الحزن منذ ذلك العهد • طفق النهم يسيطر عليه • أخذ يأكل كثيرا • قال الطبيب ان الحشورة أصابته ، فعليه بنظام غذائي والامات بفائض الشحم هذا • أخذ جسمه ينتفخ ويتشحم • حكى الطبيب حكايات حول دور الغدد في التوازن الجسمي • زعم أنه طرأ خلل في نظام الغدة الدرقية • ردد الأطفال : ياسمينة ، بابا عجينة ، وكال الطمينة ، أم أمينة • قال لهم كمال : لا ، أمه اسمها باية • لم يقتنعوا بذلك • رماهم ابن عمه بالحجارة ، بدون ما جدوى • قال هو ان موسى بن نصير كذلك كان مصابا بمرض الحشورة • أضاف أن هذا الداء حل فيه بعد انتصارات طارق بن زياد ، فحركت الغيرة موسى • لم يصدقه أحد • قال كمال : لا تبالغ كثيرا • أعادوا الكرة عدة مرات في اليوم • دخل هو حلقة المصائب • ظن أن زقزقة الطيور وتأوهاتها تمثل ظلامة الكون • تقوقع على نفسه • لم يدر أبدا ما هو العامل الأساسي الذي سبب الخلل في غدته الدرقية • أهي الحرب ؟ أهي صفعة أمه ؟ أهو أمر الشيخ يأمره بكتابة بعض الآيات البينات من سورة البقرة ؟ لم يعرف بالضبط • لكن نوعا من الغثيان نفث في جسمه فسبب اهتزازات غريبة فيه • انهار الصبي فجأة • تضخم جسمه وفاضت الشحمة من كل جوانبه • اعتكف في حجرته أياما وأياما • جاء شمس الدين بخطة جهنمية للقيام بعملية قتل شيخ الكتاب ، مسبب هذا الضرر الفادح • خاف هو من أن يصاب معلمه بأذى • بكى لما تلفظ بهذه الكلمة (قل هو أذى) • لم يعد يرغب في مشاهدة العصافير وهي تعود الى أوكارها برفقة افراخها ، ملتجئة الى قعر التوتة • أعطى ابن عمه كل علب دود القز كما أعطاها

زميله (كمال) . تشرج بين طيات النوم . سقط فى هاوية المأكولات وتأتيه أصوات أفراد العائلة وحشرجاتهم وكأنها ملتوية : منقلبة . خاف أن تصل الى فراشه تأوهات الطيور الحردة ، الحرداء . سقط المطر غزيرا مدرارا . ثم الثلج سقط بدوره غثا مهطالا . بلل المطر زجاج النافذة . طلى الثلج التوتة بمادة بيضاء . شعر بعد نكسته الأولى بأن شبكات واسعة متداخلة ، متضاربة ، تخيط خيوطها وسط جسمه اللحيم الشحيم ، مثلما تفعل الرتيلة . ارتسمت على الزجاج متاهة كأنها تنمو تحت البلور نفسه . زاحفة زحفا مريبا . قال شمس الدين لا تخف ، سوف نقتله شر قتلة . هذا أذى على المسلمين . كان يريد اضحاكه . تبهلن . مدة أيام وليال . ولم يجد ذلك نفعا . أغدقت الغدة الدرقية بسخائها . فازداد اللحم والشحم . رفض أن ينزل الى الشارع . أخذ الولع منه مأخذه . خاف من شطحات شمس الدين . سيطر الخوف عليه . تعود أن ينام والمصباح يحترق . كان ينتابه احساس غريب بفقدان حواشيه وحدوده ، فى الظلام . يوشك من حين الى آخر أن يستغيث بأمه . لكنه يتذكر صفعتها وحبل الغسيل وابطيها الحليقين المخددين بآثار الزغب الفحمي . يعدل بسرعة عن الاحتماء بها . أصبح يخاف من سواد الليل النيلي الذي يغطي صفيحة نافذته . كان يتطفل ، فى الصباح ، على ضجيج الأشياء وفرقعة الأصوات ونحنحة العمة فاطمة . غاص فى الفراغ . اقتحمته الأشياء المغمومة ، الغامضة ، القاحلة ، المبهمة : الممزوجة بشكل متزايد ، يجعله رهيف الحس والشعور . أصبح يدور فى حلقة مفرغة . أين طفولته ؟ أين راحت ؟ كان صاحب القرار يقول هذا الطفل أمانة فى عنقك . حاسبني بالجلد والعظم والدم ، ونعم البصير . دخل الكتاب حين لمحه يدنو وينفخ فى سماق اللوح . لا حرج فى الدين ، قال . قال : أكتب .

لم يكتب واو حرفا واحدا . نسي أصابعه بين الذهول والصخب والغضب . لم يكتب حرفا . يصوغ كفه من رنين الحرف المرفوض هذا . اختبأت طفولته . كيف يقص عن غسق كان يصاحبه فيه شبح أبيه المتغائب الى باب الكتاب . دخل الجامع السفلي . كان الضوء عند الصحن . لم يذكر حنين أصابعه وقد شدت على القلم وتعنفت . رفض أن يكتب : قل هو أذى .

ان أمه طاهرة . أطهر من أطهرهن جميعا . أطهر من أطهرهم جميعا . ان أمة عفيفة . أعف من أعفهن جميعا . أعف من أعفهم جميعا . قال هات رجليك . رفعهما . لف الصبي المتخاتل الحبل حول كعبيه وأدار الفلقة . رفع الشيخ عصا الزيتون . انهمك في الضرب . جنت الغدة الدرقية . راحت تلعب لعبتها . جاء كمال بشطحاته الأنيقة وعينيه . البنفسجيتين . جاء أيضا شمس الدين بنزواته الجنونية . قال : انتهى الأمر . ريح عنك . لقد دبرنا أمره . خاف هو أن يؤذى الشيخ . أصبح الليل قاتما . نجيا . فحميا . ابطا أمه أيضا فحميتان . بل مجرد آثار . هي نظيفة . ناصعة البياض . بلا دنس . خميرة الكلمات تضخم الأمور والرسوم المنتشرة أمامه وهو مستلق على فراش الفضيحة وكأن الكلمات كلها أصبحت الآن مكسورة ، ممحوة ، مشطبة ، مبعثرة ، فتبقى معانيها مغلوطة ، مشبوهة ، ملبوسة الى درجة أنها أصبحت لا تعني شيئا في نظره . وصل به الأمر الى مراوغة الأشكال ولو كان الأمر ناتجا عن مجرد انتشارها في حركيتها المتكررة . كان يشعر وكأنها تتعصر . تنحرف . تتضخم . تتذاوب . تتضاعف . وذلك حسب ايقاع متهوس يمزق الرأس بما يشبه العديد من الومضات البارقة . بل كانت هذه الأشكال تختفي بين الفينة والفينة ، وفي طوفان من النقاط الصغيرة أو

الأقراص الصغيرة الحمراء والخضراء والنيلية والنحسية والصفراء والشهباء • تخترق هذه الحدسيات الملونة رأسه بطريقة شاقولية • فتشكل شبكة من الخيوط المتداخلة •

فكانت يومها الطامة الكبرى ••• أيها الناس : أين المفر ! •• وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ؛ فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية . فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة • وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت • واني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ؛ ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس ؛ أبدآ بنفسي ؛ واعلموا أنكم ان صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالارفه الالذ طويلا ؛ فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ؛ فما حظكم بأوفى من حظي • ويقول كمال : ثخناك • ثخناك • آشو أقجون ••• لله درك يا أيها البربري •• فلا خطبتك منك ولا انتصارك لك •••• وموسى من ورائك يوبخك ويكتب لك أن تتوقف عن السير • أنت أقجون لا بطل ••• أنت مرغم يا أخي •• وموسى ذاك البوطي الطوطي من ورائك •• يوقفك عند حدك ويهينك غيرة منك : وكتب موسى الى طارق يتوعده بأنه يتوغل بغير اذنه ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانــه ! **HAUT LES MAINS !** قف مكانك أيها البربري المبربر المربب ••• حتى يلحق به وقد أخذته الغيرة ••• والبحر من ورائكم • ولكن فى لغة هذه الخطبة وروعة أسلوبها وعباراتها ما يحمل على الشك فى نسبتها الى طارق بن زياد • يريد الأستاذ ابن عاشور أن يزيد فى الطين بلة • لماذا حفظناها عن ظهر قلب ؟ شعور بشيء

عسيق يسيطر على القسم . وخارجه تدور الحرب رحاها . لماذا التاريخ هكذا ؟ وهل لابد له أن يكون مزيفا . رهيفا . مغشوشا ؟ خاننا طارق . حقدنا على موسى . قال شمس الدين يا موسى يا وكال الكرموسة ! ذهبت آمالنا سدى . ذاب حماسنا . تبخر هباء . والحرب الضروس تترقبنا وراء الأبواب . قال كمال أريد كاس ديفان . سوف أشرب حتى الثمل . ويتابع الأستاذ عرضه للأطروحة التي تشك فى نسبة هذه الخطبة الى فاتح الأندلس :
« ... وهو بربري لم يكن عريقا فى الاسلام والعروبة . والظاهر أنها من انشاء بعض المؤرخين المتأخرين ، صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان . وتشير الرواية الاسلامية فى هذا المضمار الى ... » قال كمال اذن من هو الشخص الذي وضع هذه الخطبة ؟ قال أحدهم : النابغة المجهول . وهكذا بدأ الاستهتار يعم الجو المدرسي والأستاذ لا يرحم ولا يشفق . يمضي قدما فى التعليق على هذه المهزلة ويبالغ فى تشككه . يقول أحدنا : لقد جن الأستاذ ولسوف نقمصه قميص الأمن مثلما هو معمول به فى مستشفيات العالم العقلية . وسينفذ ! تركنا هذا الافتراض حول نسبة خطبة طارق بن زياد أيتاما والحرب تدور رحاها :

JE N'AI PAS TUE MADAME PERRON ...
LA VAGUE TERRORISTE ...
L'INVITEE DE LA REINE ...

والجرائد الفرنسية لا تني تضخم عناوينها والعساكر يجوبون طرقات المدينة وأزقتها ويقتحمون المنازل . فجاؤوا فى احدى الأيام فجأة يفتشون دارنا بحثا عن الأب فلم يجدوا الا النساء والأطفال والعم حسين وهو يرتعش تحت سطوة الخوف . فيصعدون الى السطح ويكتشفون الشعارات المناوئة لفرنسا

وإحضورها في البلاد . والعم حسين يوشي بطارق ابن أخيه وبشمس الدين ابنه . فيبصق شمس الدين على الضابط . فيصفعه هذا . والعم حسين يوبخهما ويلكمهما ويقرصهما فيحظى برضا القائد الفرنسي . و (العم حسين) كثيرا ما صادفه في شوارع المدينة بعد انتهاء الحرب وقد مر على ذلك ما ينيف على عشرين عاما ، وقد مضى على اندلاعها زهاء الثلاثين عاما . (والعم حسين هو هو لم يتغير . كان يود مصارحته في موضوع الكراهية التي كان يكنها له منذ عهد الطفولة . صادفه في احدى الأيام بوسط المدينة . كان واقفا بجانب سيارته . مبتسم الوجه . متلاعب التعبير . متداعبا دهشته . متفاعلا الابتهاج قائلا : كما قلت لك منذ مقابلتنا الأخيرة ... أفلا تذكر ذلك ؟ أبوك لم يتغير وسوف لن يتغير . أنت تعلم أنه تخلص من أمك بطريقة ماكرة . كانت امرأة عظيمة لكن : لله دره أخي حسونة . أنت على علم بذلك ... لا تحدثني عن شمس الدين . هذا الابن الضال . المتمرد ... أعلم ما يربط بينكما من علاقات وثيقة ... انكما تحبان بعضكما الآخر ... ما أعرفش علاش .. أنت راجل عالم وهو طايش .. من سكرة لسكرة . أنا لا أريد زرع النميمة بينكما .. لكن ... لكن ... لا أفهم ما لهذه العلاقة من معنى . انها غير طبيعية . وصاحبك ؟ كيف أحواله ... نسيت اسمه . ذكرني يذكرك ربي في الشهادة ... آه كمال . الذاكرة راحت وراح معها كل شيء ... ما أبقى شيء ... كدس اعظام . لا أكثر ، لكن نشكره على نعمته ... وهو لا يرد عليه . وهو : آه . كيف أحواله كمال ؟ كان ماهرا في الاقتناص ومشهورا بواقعاته النسائية والعشقية في كل المدينة (يضحك) بدأ أفعاله وعملاته وهو مراهق ... كان المرحوم أبوه صديقا عزيزا علي ... لم يكن يستقر ولو شهرا واحدا . مثل أبيك .. دائما ماشي جاي .. كل يوم في بلاد .

زار أخي بلدان العالم كلها الا مكة المكرمة • رفض أبوك أن يزورها ••• أتعلم ذلك ؟ غريب أخوي ، لم يسعفه الحظ مع النساء • رجل لا يفهم • صاحب أطوار • شمس الدين جاء ليه . طلع مثله ••• وخيف الى آخر ••• لا يستقر ولا يكف ••• كيف راه أبوك ؟ يريد صفعه • يتذكر ابتساماته الخنوعة أمام الضابط لما باغتهم الجيش فى قعر المنزل وعلى سطحه • نفس الابتسامة المنافقة• يريد صفعه• لكنه يتركه يثرثر • يقتله بالاحتقار واللامبالاة ••• بالبارد • يرى لسانه يلتوي داخل فمه النصف أدرد • لم يرفع يده • لم يتحرك له ساكن • قال فى نفسه : اكراما لشمس الدين . سوف لن أصرح له عن كراهيتي المطلقة • العم حسين هو كارثة العائلة • لم يعمل قط ••• ولو يوما واحدا فى حياته • كان يتطفل على الوالد • قال : صرت رجلا كهلا ما شاء الله ••• حقيقة كنت وطنيا غيورا منذ الصغر • أشهد لك بذلك • صدق باباك كساك طارق ••• أما ابني شمس الدين . فقد كان مجنونا ••• أنا غاضب عليه الى يوم القيامة • لقد استعصاني وسوف يجازيه الله •• قال بعد أن عيل صبره : شمس الدين من خيرة العباد • واذا بالعم حسين يقف مشدوها • كأن الصاعقة انقضت على رأسه • تلعثم • قال هو بصوت جاهر وواثق من ذاته : خيرة الناس ••• شمس الدين • واذا هو شرب فلكي ينسى أن أباه خائن ••• وقف مذهولا • مصعوقا • مشدوها • معزولا • مخلوعا • مبهوتا • تركه مسمرا فى مكانه • ثم انصرف الى شؤونه•

كانت المنسنة تتصدر المكانة المرموقة من أحد جدران المكتب الذي يغلق الأب نوافذه فى فصل الصيف منعا من تسرب الحرارة اليه . فيبقى المكان مظللا . ما عدا كوس مثلث رقيق من الشمس يتمكن من شق طريقه الى وسط الأرضية . من خلال صفاق النوافذ . وكان الأب حريصا على عدم ترك برنسه الصوفي حتى أثناء

الفترات القيظية التي تتخلل فصل الصيف . كما كان لا يفتح النوافذ الا عند مغيب الشمس . وكثيرا ما كان يتصارع آنذاك . ولبرهة قصيرة من الزمن ، ضوء الغروب الرمادي مع ضوء المصباح القائم على المكتب المكلل بالأوراق المتراكمة في شكل فوضى مذهلة ، مما ينتج انارة شاحبة ، مصفرة ، تزيد في عتاقة المنمنمة وتضاعف جاذبيتها . وتبقى روائح الحوامض تسيطر سيطرة طويلة على الأجواء ، وذلك بعد أسابيع من نهاية موسم تصنيفها وتعليبها وتصديرها . كانت عبارة عن رائحة فسيخة ومسكرة تطفو على الجو وتنضح من الجدران . ومن حين الى آخر تصل الى المخزن بعض العينات المبكرة من البرتقال ، فتعود تلك الرائحة فتستولي ليس فقط على المخزن نفسه بل أيضا على المكتب فتتكون بالتالي أنواع من الرواسب الخانقة ، السميكة ، المتعطنة ، توحي بروائح الجثث المتعفنة المتفسخة مثل تلك التي تتكاثر في ساحات القتال . ولعل هذه الرائحة كانت مجرد استيهام تفرضه المنمنمة نفسها والتي احتفظ بها الأب على الجدار المقابل لمكتبه ، وهي الصورة التي تمثل طارق بن زياد وأعوانه وهم واقفون أمام سور الزقاق . قبل نشوب المعركة الحاسمة ضد القوط : ونزل بهم طارق جبل الفتح فسمي باسمه ، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصين . وبلغ الخبر لرذريق فنهض اليهم يجر أمم الأعاجم ، وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين ألفا ، فالتقوا بفحص شريش فهزمهم اليه ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم ... يقول أبي ، يوم اكتشف في كراسي هذا النص لابن خلدون وقد كنت مطالبا بترجمته : ترجم يا ولد ! وأداروا الأسوار على أنفسهم . الترجمة الحرفية أولا ثم سوف نرى فيما بعد . وأداروا : Ils enroulèrent

الأسوار : Les remparts على أنفسهم : Autour d'eux

وأنا ارتعد خوفا • وهو يصيح في وجهي : ألا ترى أن ترجمتك الحرفية بليدة للغاية . لا معنى لها ؟ لكن لنستأنف ••• سوف نجد لها حلولا مناسبة • فنهض اليهم يجر أمم الأعاجم وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين ألفا • فنهض اليهم Il releva le défi
يجر أمم الأعاجم وأهل ملة النصرانية ameutant
tous les peuples impies et les gens se réclamant du Christ.
وهو لا يقوى على اخفاء غبطته وهو يراني أتعثر بين كلمات اللغتين فيقول صائحا : رديء ••• أفيصل الحمق بك الى هذا الحد ؟ وأتركه أنا يتخبط في غيظه • أبقى جاثما أمامه ، لا أبدي حركة • خاصة وأنني كنت أعرف عن كثب أنه سوف لن يصبر طويلا على عدم ترجمة النص هو بنفسه وقد حفظه عن ظهر قلبه ؛ بل حفظ كل مجلدات ابن خلدون التي خصصها لتاريخ العرب والبربر • فأقول في نفسي : صبرا • سحابة وتمضي •• شدة وتزول كما كانت تقول العمة فاطمة ؛ سينتهي به الأمر الى المبادرة بترجمة النص هو بنفسه • أشعر به وهو يتناوب ويتلهف المعودة الى الشروع بالترجمة : فأرتاح من عبء هذه المسؤولية . خاصة وقد وضح لنا الأستاذ ابن عاشور ما يكتنف خطبة طارق بن زياد من غموض فلم أعد أعيرها تلك الأهمية بعد أن علمت أن الرجل لم يتسن له وضعها وهو لا يلم باللغة العربية وقد كان بربريا وحديث العهد في الاسلام والعروبة • أتركه اذن يغتاظ ؛ مزمجرا ، غاضبا ؛ متهكما • أما عن موسى فلا حاجة الى أدنى تعليق : (لم يكن موسى بن نصير ليتوقع لقائده ومبعوثه طارق بن زياد مثل هذا الفوز والانتصار • فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه تحول اعجابه الى حسد وغيرة ؛ وخشي أن ينسب هذا الفتح العظيم اليه دونه ؛ ولعله شعر بالاغتياظ أيضا لتسمية جبل الفتح باسمه وذلك دون استشارته هو موسى بن نصير حاكم القيروان

وأمير طارق . فكتب اليه ألا يتقدم حتى يلتحق به . ويتوعده بالعقاب اذا ما توغل أكثر من ذلك بدون اذنه . ولكن البعض يعلل غضب موسى بن نصير فى وجه طارق بن زياد ولحاقه به يكون طارقا قد خالف الأوامر الصادرة اليه بألا يتعدى قرطبة او المكان حيث تقع فيه هزيمة القوط وهذا تعليل حسن يتفق وما اثر عن موسى من الحيطة والحذر والحيلة والدهاء . فقد ينكب المسلمون اذا هم توغلوا فى أراض ومسالك مجهولة . على أن ذلك لا يمنع أن يكون للعزة والغرور والغيرة والحسد أثرها فى نفس أمير القيروان وفى تصرفاته . وسرعان ما عبر موسى بن نصير البحر الى بلاد الأندلس فى سفن صنعوها خصيصا لذلك يحذوه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته وبدانته التي كانت تكلفه الكثير حتى انه كان يستعين بحراسه وجنده للانتقال من مكان الى آخر .) هذا ما قاله لنا الأستاذ ابن عاشور فى احدى الأيام . فكرهنا التاريخ وفهمنا أنه مشحون بالخلفيات والتفاصيل المزيفة . أتركه اذن يترجم وأبقى أنا صامدا . ساكتا . صامتا . مترقبا انتهاء هذه النوبة الغاضبة . متيقنا أنه سوف لا يصبر أكثر من ذلك على خوض معركة الترجمة . خاصة وأن النص يتعلق بمفاخر وصنائع معبوده الذي فتنه منذ صباه فلم يكتف بشراء هذه المنسنة الرائعة بأموال باهضة ، بل سماني به يوم ولادتي فخلق بالتالي عقدة رهيبة لم أتخلص بعد منها فغرزها فى نفسي الى الأبد . ولقد حدت بي روح الفضولية أن قرأت فيما بعد كل ما كتب حول هذه المعركة وكل ما صنف حول هذا القائد ، ولما أتته من اكتشاف ملاعب التاريخ وتزييفاته وتقلباته وانحرافاته المذهلة . قال كمال يوم صعقنا الأستاذ بتعليقاته وافشاءاته : « اثخنك . أفجون . أفجون . لقد سقطت فى الفخ أيها البربري » .

كانت المنمنمة تحتوي على عشرة فرسان . أما طارق فكان يظهر راكبا فرسه فى الصف الرابع . وهو الوحيد الذي كانت يداه شاغرتين . فلا راية يحمل ولا طبلا ولا بوقا . على غرار الآخرين . لكن . وباستثناء ذلك . فلم يكن القائد المظفر يحمل علامة خاصة تدل على مقامه وما يتمتع به من وجاهة . لقد كان يتوسط الكوكبة ليس الا . فيحيط به ثلاثة جنود الى يمينه وثلاثة الى شماله . أما الثلاثة الباقون فلا شكل لهم فى الصورة . انما خيولهم هي التي توحي لوحدها بوجودهم . وكأن الرسام أراد تسليط الأضواء على التفاصيل والجزئيات والحيوانات والرايات . وترك جانبا طارق بن زياد وصحبه . حتى انه راح يرسم بعض الخيول المفقودة فرسانها فكأنه (الرسام الفارسي المجهول) تعمد ذلك ليس نكاية بطارق وانما شغفا بالخيل التي صورها بدقة عجيبة بقوائمها ورؤوسها وذيولها وألوانها وسروجها وخاصة ما فيها من حركة تحولها فى عين الناظر الى منظومة كوريغرافية . راقصة . مترنمة . مكدفة . متطاولة . متشنجة . متشامخة . متطاربة . متعازفة . متصارعة . متغالية . متفاوتة . متسابقة الخ ... أي أنها على أهبة الاستعداد للسباق والركض والجري والنط والقفز والتعجرف ... أي كأني بها لا تبالي بالخطر ولا بأي شيء آخر يماثله . ولذا فقد ظهر أفراد الكوكبة متكلفين بعض الشيء . متجمدين . متحجرين . متحذرين . وقد فقدوا كل حيوية وحركة بل انهم فقدوا أيضا حتى بشريتهم أو . بالأحرى . تلك السمات المعتادة التي تعلو كل سحنة انسانية . فتوحي لمن يشاهدها بأن هذه الأشكال المرسومة . المخطوطة والمنحوتة انما تمثل أشخاصا ذوي هبة وأبهة . أي عبادا لعبوا ليس فقط الأدوار الأولى فى التاريخ وأروقته ومجازاته . بل أيضا

كانوا أبطالا أساسيين .فلولاهم لما تسكنت البشرية من السير قدما ، من خلال التقلبات التاريخية والاختراعات العلمية والاكتشافات الجغرافية . ولعل الرسام الذي لا بد من أن يكون فارسيا . علما بأن فن المنمنمات تترسخ أصوله في بلاد الفرس . الم يكن يعلم هو أيضا أن بعض المؤرخين زعموا أن طارق بن زياد هو من أصل فارسي . وبالضبط من نواحي همدان (وفي شهر رجب سنة اثنتين وتسعين جهز موسى بن نصير جيشا من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد ، وكان يومئذ حاكما لطنجة . ومن الغريب أن الرواية الاسلامية لا تحدثنا عن فاتح الأندلس بشيء قبل ولايته لطنجة ؛ بل انها تختلف في أصله ونسبته . فقيل هو فارسي من همدان ؛ كان مولى لموسى بن نصير . وقيل انه من سبي البربر . وقيل أخيرا انه بربري من بطن من بطون نفزة ، وهذه فيما يظن أرجح رواية . بايراد نسبة طارق مفصلة . ويبدو هنا أن طارق تلقى الاسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله ، وهو أول اسم عربي اسلامي في نسبته ، ثم ينحدر مساق النسبة ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهي الى نفزة ، وهي القبيلة التي ينتمي اليها طارق بن زياد والتي تقطن منطقة واسعة ما بين وادي مجردة وأحواز القيروان بالمغرب الشرقي . فتكون نسبة طارق المكتملة كالتالي : هو طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن نيرغاس بن ولهاص بن يطومث بن نفزا . وهكذا يكون اسم فاتح الأندلسي كالتالي : طارق بن زياد الزناتي ؛ لا طارق بن زياد الليثي وهي نسبة لم

يكسبها طارق الا بعد خروجه من الأندلس وتوليه احدى ولايات المشرق •) ؛ لولا جهله لما جاءت صورة طارق هذه وأصحابه ، متكلفة ، فاترة ، تنقصها الحيوية وحتى الصبغة البشرية ، فبرز القائد العظيم بمظهر آلي ، متخشب ، جامد ، فاقد لكل خصال الانسانية ، ولأدنى سمات البشرية • فيضرب الشك فى ذهن المشاهد وتداخله الشكوك . فيروح فيظن أن طارقا راح ضحية الطائفية والعصبية ، اذ أن الرسام الذي وضع المنمنمة لم يعطه صفة لأنه من أصل بربري •• •لكن كل هذه الاعتقادات تبقى وهمية لأن طارق يحتل المكانة المرموقة فى المنمنمة • فيبدو محفوفا بهذه الحاشية النبيلة من مساعديه ، فيظهر كل واحد منهم حاملا اما الرايات واما الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها وأشكالها وألوانها الصفراء مثل تلك الرافعات العاملة فى ورشة البناء المقابلة النافذة•أي ان الخيول المرسومة على المنمنمة كانت صفراء.فتتناقض صفرتها مع الألوان المستعملة فى رسم الأشخاص،أي فى رسم طارق بن زياد ومجموعة من القواد وهم واقفون أمام سهل (فحص يقول ابن خلدون) شريش • لا تتجاوز المجموعة العسكرية العشرة أنفار بمن فيهم طارق بن زياد مساعده وضاربي الطبول ونافخي الأبواق وحاملي الرايات • صفراء اذن تلك الخيول الواقفة خلف خليج الزقاق وقد كانت تحمل فرسان الطليعة ، يتصدرهم القائد (قبل أو بعد أن ألقى خطبته المشهورة : أيها الناس • أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ••• وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم • فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا

الطاغية . وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سحتم لانفسكم بالموت . واني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس ، أبـدأ بنفسـي .) :
أما بقية الأحصنة فقد كانت عنابية اللون أو بنيته . كان عددها عشرة هي أيضا . مصطفة كلها على خط واحد . ما عدا فرس أحد قارعي الطبول المزدوجة . كانت تظهـر وراء المجموعـة العسكرية خمس رايات . أولا : راية رمادية القماش وقد كتب عليها بحروف كوفية بيضاء اللون هذه الآية : (قل هو الله أحد الله) . أما الكلمات التالية للسورة ، فقد كانت مخفية . ولكن يصبح من اليسير على المشاهد أن يكملها : (الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوء أحد) . ثانيا : راية حمراء قد نسجت عليها هاتان الكلمتان : الله . وتحتها كلمة : أكبر . وما يفرق بين الكلمتين الا رسم هو عبارة عن شبه نجمة مربعة الأطـراف (أو مقوسة ؟) ثالثا : راية شهباء تحمل عدة كلمات مكتوبـة بالأبيض لا يمكن قراءتها لتشابه اللونين (أي لون الخليفة وهو أشهب فاتر ولون الحروف نفسها وهو أبيض بارد) . ولكن يمكن لمن أراد التمحيص مليا فى الصورة أن يكتشف كلمـة (الله) فى الجزء الثالث والسفلي من الراية وعلى جهتها الغربية . رابعا : راية منسوجة من كتان أسود قد طرزت عليهـا هـذه الكلمات : لا اله الا الله . أما بقية الجملة فلعلها : (محمد رسول الله) ، لكنها غير ظاهرة على كل حال . وذلك بسبب رأس قارع الطبل ذي الحصان المتقدم . فهو يخفي الربع الأخير من هذه الراية . خامسا راية عنابية النسيج تحمل هذه الكلمات : لا اله الا الله محمد . أما بقية الجملة فهي أيضا مغطاة برأس أحـد الضباط الذين يرافقون طارق بن زياد (الليثي ؟) الزناتي .

لكنه يمكن المتفرج أن يكملها ذهنيا وبسهولة كلية . كالتالي : (رسول الله) . سادسا : على شمال المنصة عدة رايات مختلفة لألوان والأشكال . مطوية الأقمشة وكأنه بسبب هبوب رياح عاتية . فلا يمكن قراءة الشعارات أو الآيات أو بعض مقتطفات الخطبة (من يدري ؟) أو جملها . فتلعب دور الحافز النموذجي . فتكون كالتالي : (أين المفر ؟) + (وان لم تنجزوا لكم أمرا : ذهبت ريحكم) + (واني لم أحاذركم أمرا أنا عنه بنجوة) + (أبدأ بنفسي) وغيرها من العبارات التي امتلأت بها هذه الخطبة الرائعة فأصبحت تلعب في أذهاننا أدوار النماذج اللغوية والمعايير الأخلاقية المتفانية . سابعا : ان لكل راية من الرايات التسع شرابة . أي نوع من خصلة خيوط قطنية . كثيفة . مخروطية الشكل ، وردية اللون . ولعلها هي التي تشد .

أخرج طارق من أحد أدراج مكتبه جريدة . قرأت :

...S'ECRIE SYLVIE PAUL.
...DEFERLE SUR L'ALGERIE.
...GINA LOLLOBRIGIDA

بطريقة آلية أنصاف العناوين الثلاثة هذه دون أن أفهم معانيها . كانت الجريدة رثة ، صفراء . حاولت أن أقرأ بداية هذه الجمل الثلاث الا أن الجريدة كانت مطوية على نصفيها . فهم طارق من نظرتي الملحة انني أود قراءة العناوين كاملة ، لكنه تفاعل الغفلة والانشغال بالدليل السياحي البراق . فوضع الجريدة على مكتبه حسبما كانت مطوية ، ثم جعل الدليل من فوقها . فلم أعد أقرأ الا ثلث العناوين الضخمة الثلاثة :

...ECRIE SYLVIE P...
...FERLE SUR L'AL...
...GINA LOLLOBRIG...

قال طارق وأنا لا زلت أحاول استكمال هذه العناوين الثلاثة المرقونة بحروف ضخمة على هذه الجريدة الصفراء بدون ما جدوى : لماذا لا يمكن زيارة مدينة أجنبية نائية مثل جبلطارق لسبب نرجسي ؟ هذا اذا كان افتراضك صحيحا ، طبعا . قلت ، وعيناي لا زالتا ترمقان الجريدة : أنت أبله يا طارق . ما ذلك الا لأنك تحمل الاسم نفسه . هل جننت ؟ أين قوة مزاجك وصلابة عزيمتك ؟ أنت لا تني تتوسل الي مطالبا اياي باصطحابك الى جبلطارق على غرار ما فعل طارق بن زياد عند عبوره خليج الزقاق على متن سفن قليلة وضعها يوليان القوطي تحت تصرفه وذلك نكاية بلرذريق حاكم بلاد الأندلس وزعيم القوط . وكانت بين الرجلين (أي يوليان لرذريق) عداوة قديمة زعم بعض المؤرخين ، ومن بينهم ابن خلدون ، أن سببها كانت قضية خيانة بالأعراف : (وكان يوليان ينقم على لرذريق ملك القوط لعهده بالأندلس لفعله بابنته فى داره كما زعموا ، على عادتهم فى بنات بطارقتهم فغضب لذلك وأجاز الى لرذريق فأخذ ابنته منه ، ثم لحق بطارق فكشف للعرب عروة القوط ودلهم على غرة فيهم أمكنت طارق الفرصة فانتهزها لوقته وعبر نحو العروة الشمالية على متن سفن حليفه يوليان) اذن على غرار (هذا غرور فيك) طارق بن زياد تريد أنت السفر الى هذه المدينة الرديئة ، فقط لأن أباك سماك باسمه . تهكم بدوره واستلم الجريدة وكأنه يبغي أن يعاقبني على عدم تجاوبي مع اقتراحه بتنظيم رحلة الى جبلطارق ، فيمشي صاحبي وشريك طفولتي على خط فاتح الأندلس ويحذو حذوه . فأقول له مستفزا اياه ، متهجما ، متهكما : اتركنا من هذا الشاوي ... ارخف علينا ... خلينا . وهو : شاوي ؟ واشبيهم الشاوية ؟ وأنت واش تكون ؟ ثخناك !

طارق شاوي وأنا كذلك . ما رأيك ؟ حاولت أن أقهقه . فعكفت . ليس فقط لأنه رجل طيب راح ضحية هاجس ركبه له أبوه يوم ميلاده . ولم يقو على الخروج من هذا العصاب الخفيف المزمن ، بل وكذلك لأن الأستاذ ابن عاشور زاد فى الأمر تفاقما بحيث أنه أنزل علينا الفاجعة فى أحد الأيام ، قائلا . متبجحا : (يزعم بعض المؤرخين أن نسبة خطبة طارق بن زياد المشهورة ، يكتسيها كثير من الالتباس وتشوبها شكوك كثيرة) قال طارق يومئذ : خلينا من الشاوي متاعك هذا . مغندف . لقد غامر وحارب وفتح ، بيد أنه سرعان ما أتاه موسى يوبخه ويلقي القبض عليه . قلت لك أن طارقك هذا شاوي مغندف . أجابني وهو يغتاظ متحمقا : ثخناك . أويد أفوشيل . قلت : بدون تعليق ... أضفت وقد مضى على هذا الدرس الذي لقننا اياه الأستاذ ابن عاشور قرابة ثلاثين عاما : أو تريد خوض معركة جديدة حول طارق بن زياد ونسبه الخطبة المعهودة ؟ قال : لا . انتهت الحرب ، فبقيت الأشياء الحسية . لا يمكن التخلص من هذا الهوس الا باقتحام هذه المدينة . لا أريد التسوح . لا أريد الا رؤيتها بأم عيني . أعرف أنها قبيحة وليس فيها آثار عربية مطلقا . لكنني فى حاجة الى استنشاق رائحتها ، على الرغم من مرور الأيام والقرون . تعال معي يا كمال . عكفت عن الضحك . لقد كان عزيزا علي هذا الرجل الذي لم يكبر رغم كهولته ولم يعرف كيف يتخلص من طفولته . لقد كان داهية أيضا خاصة اذا ما أراد نيل شيء هو فى حاجة ماسة اليه . رفع عينيه نحوي . قلت أعطني هذه الجريدة . لماذا تريد تجميعها وقراءتها سرا ؟ كذلك : لماذا ترغب فى اخفائها ؟ قال : شريطة أن تأتي معي . قلت : موافق أخاك لا بطل . ضحك . أخذ

الدليل السياحي بين يديه . أخذته . قرأت : تعالوا الى جبل طارق

VISITEN USTEDES A GIBRALTAR ! VISITEZ GIBRALTAR ! VISIT THE TOWN OF GIBRALTAR !

ألقيت نظرة سريعة على الغلاف الفاخر الزاخر بالألوان الفاقعة . الصارخة . سحابة خفيفة تسر من وراء الزجاج المقابل للأريكة التي كنت جالسا فيها . وضعت الدليل السياحي على الطاولة . قلت : والآن هات الجريدة . أخرجها من جديد من الدرج . بحذر ومبالاة وكأن الأمر يتعلق بمخطوط نادر وعريق في القدم . فتحها أمام وجهي وهو يمسك طرفيها بيديه . قرأت :

JE N'AI PAS TUE MADAME PERRON S'ECRIE SYLVIE PAUL.

LA VAGUE TERRORISTE DEFERLE SUR L'ALGERIE.

L'INVITE DE LA REINE D'ANGLETERRE : GINA LOLLOBRIGIDA.

سكتنا ردهة من الزمن . اغرورقت عينا طارق بالدموع . بقيت مذهولا . قلت : هل احتفظت بجرائد أخرى ؟ قال : بكل الجرائد . صرت أخرج كل يوم احداها وأضعها في جيب سترتي . نوع من الحرز . لا أقرأ الا العناوين . انها مضحكة ومحزنة في آن واحد . قلت هكذا استأنفت حربك . قال : بلى . ثم سقطنا في صمت ثقيل ، مرة أخرى . قلت : ذهبت اذن الى سفارة جلالة الملكة الانجليزية ، هي نفسها تلك التي كانت تستضيف في قصرها الممثلة الايطالية جينا للوبريجيدا ، لثلاثين عاما مضت ، أثناء حرب الجزائر ؟ قال : طبعا . لقد أتيت بالدليل السياحي من هناك . أما بطاقة الطائرة فقد اشتريتها لسنوات عديدة . كل عام أستبدلها بأخرى ، عندما توشك صلاحيتها على الانتهاء ... تعال معي نزر بلد طارق .

قلت : خليج الزقاق • استطرد : ثم تفهم • فقهقه بدون ما مبرر • دخلت عليه الممرضة العجوز العبوس • أشار اليها بالانصراف قبل أن تتفوه بكلمة • خطا طارق خطوتين ووقف ورائي • أو بالأحرى وراء الأريكة الجلدية التي جلست فيها • رأيت ظله بنعكس على زجاج النافذة • المقابلة لي • كان ظلا كئيبا • فهمت أن النهار قد انقضى • جاءت بعدها كلماته تلفها العتمة ولم يفكر بعد باشعال المصباح فوق المكتب • واذا بي أرى رافعة صفراء تتحرك من اليمين الى اليسار هناك وراء النافذة كان لونها أصفر • أو ـ بالأحرى •

هل ترى شيئا يشبه خزان ماء عربي ؟ لم أر ما يشبهه لا من قريب ولا من بعيد • كما أنني لم أرد على سؤاله • ازدادت الحرارة داخل السيارة • قال وكأنه يحاور نفسه : أرى بعض الأشجار ولعل فى ذلك ما يدل على الماء • ألقيت نظرة مستديرة • ظهرت الربوة المقابلة وكأنها ظهر حوته ضخمة ، صلصالية اللون ، مبقعة مساحتها بألوان قاتمة ، مبرقعة هنا وهناك ، بنية ـ عنابية • وكانت بعض القرى المبعثرة تظهر من حين الي آخر ، فى مؤخر السهل ، من بعيد • كانت هذه القرى ملونة بنوع من الأبيض الداكن الكامد • وفى الأفق تراءى خط يتكون من التلال المعطة : الجرداء • وصلت الى مسامعنا كتلة من الأصوات والصيحات • رأينا أطفالا يتلاحقون ويركضون • كان الميدان أشهب وأرقط ، خال من أي عشبة • كان حارس المرمى ، أو بالأحرى ، الطفل الذي يقوم بحراسة المرمى . متكئا على أحد العمودين يشاهد رفاقه يهددون المرمى الآخر . المقابل • كانت كوكبة صغيرة من المتفرجين تشاهد المقابلة • البعض يجلس على الأرض والبعض واقف وفئة صغيرة من

ثلاثة أنفار تجلس القرفصاء ، فى ظل جدار طويل مطلى بالجير
وقد كتب عليه بحروف سوداء ضخمة هذا الاشهار وكأنه يأمر
كل من قرأه أن يستجيب بدون نقاش : DRINK PEPSI COLA !
كانت الحروف أطول من المتفرجين الأطفال • تمهل طارق فى
سيره • وفجأة صعد هتاف جماعي نحو السماء • رفع بعض
المتفرجين أذرعتهم الى فوق • أظهر الطفل المسؤول عن حراسة
المرمى فرحا شديدا وأخذ يقوم بقفزات بهلوانية فيتدحرج على
الأرض كالمسعور ، صائحا : GOAL ! GOAL ! ذات أنبهك
أننا راكبون سيارة واننا نسير على طريق غير معبدة ، حذار من
الهوة ••• خذ بالك من السياقة • والا أوقعتنا فى الهاوية •
قال . متهكما ، وما أدراك ما القارعة • لكنه أمسك بالمقود
بشدة وعدل مسير الآلة • وقفنا أمام مقهى ريفي صغير • رأيت
أمامه طاولة من الزنك وكرسيا من الخشب • سأل طارق أحد
الجالسين داخل المقهى . بدون أن يتجاوز العتبة ، عن مكـان
الخزان القديم • سمعت صوتا جهوريا يرد عليه بالانجليزية ،
بدون أن أميز بين الكلمات • خرجت بدوري من السيارة وقد
بلل العرق كل ثيابي وغشى نظاراتي الشمسية • خلعتها • بقيت
أمام المقهى ، وراء طارق ، مدورا النظارات بسرعة ، وقد أمسكتها
باحدى عروتيها • ألقيت نظرة داخل المقهى الغارق فى العتمة •
لاحظت أن بعض الزبائن كانوا يسترقون السمع الى المحادثة
الدائرة بين طارق والقهوجي • ولما حدقت فى اتجاه أحـدهم
تفاعل الانهماك فى اللعب بالورق • قلت : هل ستأتي ، ماذا قال
لك ؟ قال : لا شي ••• قال فقط انه لا أثرا عربيا هنا فى المنطقة
كلها • لا شك أنهم يرفضون ارشادنا وادلالنا • يا له من تعصب
دنيء • قلت لك انهم يكرهون العرب • ضحكت فى وجهه •

ركبت السيارة • لحقني طارق • ركب بدوره • نظر فى اتجاهي • شعرت أن أعصابه بدأت تتوتر لشدة الحر وكثرة الأمور وقوة الانفعال • قلت بعد هنيهة بعدما استأنفت السيارة سيرها : لقد تبخرت آمالك وتوغلت آلامك • راح العرق يتصبب على جسمي كله • وأخذت السيارة تتقدم ببطء أكبر • فتح طارق النافذة الخلفية ورائي • هب هواء زلج ، فاتر ، ثخن ، جالف • أغلقت النافذة على الفور • لم نر طريقا أخرى ، خارج تلك التي كنا نسلكها • راح طارق يقود بتأن ، محدقا فى الطريق • كانت عبارة عن خط أبيض ناصع لفرط ما ترك ، من الغبار عليه وشدة القيظ • واذا به تبرز أمامنا ، بعد بضعة كيلومترات ، مجموعة من الديار الريفية ومن ورائها حقل تبغ صغير : ديار مبنية من الطوب الأحمر طلي بالأزرق النيلي • أوقف طارق السيارة على حافة الطريق ، بجانب الحقل • خرج طفل من العدم • اقترب من السيارة • وضع يده على اطار الباب • بالقرب من ذراع طارق • قال : أتبحثون عن البركة العربية ؟

DO YOU LOOK AFTER THE ARABIAN TANK ?

لقد أخطأتم • انها وراءكم • أشار بيده الى الجبال المضببة لشدة القيظ • قلت : هل تتكلم الانجليزية ؟ أطاق ضحكة رنانة وقفز هاربا • جاء كهل يجرجر أقدامه • لحقته دجاجة حليقة العنق • ركلها الرجل برجله فهرولت فى هرج وعياط • سأله طارق • قال : لا ، لا • قلت : لا يمكن الاستمرار هكذا بدون دليل • تفاقم الجو داخل السيارة • قال طارق : هذي عافية والانار ! تقول باب جهنم تحل على مصراعيه • قلت : فى أي يوم بالضبط غزا طارق بن زياد جبل الفتح هذا ؟ أجابني : يوم الاثنين الخامس من

رجب سنة 92 هجري الموافق 27 أفريل 711 ميلادي بالتدقيق •
هذا من حسن حظه والالمات شهيد القيظ والحر ••• ولو أتى
فى فصل الصيف اولى أعقابه مهزوما ، مغلوبا ••• أما انه بدا
الغزو فى فصل الربيع ، فهذا من حسن حظه •••


القسم الخامس

قال أستاذنا ، متجاهلا خيبتنا وغضبنا وصخبنا : وقد اختلف المؤرخون في تعليل البواعث التي حملت موسى بن نصير على أن يصدر أوامره الى طارق بوقف الفتح . فقيل أن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومبعوثه البربري . فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه تحول اعجابه به الى حسد وغيرة (وأجاز طارق بن زياد البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة باذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثمائة من العرب ، وانتهب معهم من البربر زهاء عشرة آلاف فصيرهم عسكرا ونزل بهم جبل الفتح فسمي جبل طارق به ، والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف فسمي به وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصين . وبلغ الخبر لرذريق فنهض اليهم يجر أمم الأعاجم ، وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين ألفا فالتقوا بفحص شريش فهزمه اليه ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم . وكتب طارق بن زياد الى موسى بن نصير بالفتح والغنائم فحركته الغيرة ...) وخشي أن ينسب ذلك الفتح العظيم اليه دونه فكتب اليه ألا يتقدم حتى يلحق به ، ويتوعده بالعقاب اذا توغل بعد بغير اذنه . ولكن البعض يعلل غضب موسى على طارق ولحاقه به ، بأن طارقا خالف لأوامر الصادرة اليه بأن لا يجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط . وهذا تعليل حسن يتفق وما أثر عن موسى

من الحيطة والحذر ، فقد ينكب المسلمون اذا توغلوا فى أراض ومسالك مجهولة . على أن ذلك لا يمنع من أن يكون للعزة أيضا أثرها فى نفس موسى وفى تصرفه . وعلى أي حال فقد عبر موسى البحر الى الأندلس فىعشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر فى سفن صنعها خصيصا لذلك ، يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته وسمنته التي كانت تكلفه الكثير من العناء والمشقة والاحراج (وهل من علاقة بين بدانة موسى بن نصير والتضخم الشحمي الذي أصبت به فى آخر الطفولة وبداية المراهقة. فعانيت منه المر والمالح ، وزادني عقده على تعقدي المفرط ؟) ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله يوليان وذلك فى رمضان سنة ثلاث وتسعين . وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونـــة ، ثم سار الى قرمونـــة وهي يومئذ من أمنع معاقل الأندلس . فافتتحها بعد أن حاصرها شهرا كاملا ، بمعـــاونة يوليان وأصحابه . وقصد بعدئذ الى اشبيليـــة أعظم قواعد الأندلس . فاستولى عليها بيسر كبير . ثم سار الى ماردة وحاصرها مدة ، وقتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين فى كمين دبره النصارى . وانتهت بالتسليم فى رمضـــان أو شوال سنة أربع وتسعين ؛ على أن تكون أمـــوال الغائبين والكنائس غنيمة للمسلمين دية لمن قتل منهم . وقصد موسى بعدئذ الى طليطلة فالتقى بطارق بن زياد على مقربة منها وكان قد سار الى استقباله (... وتلقى طارق بن زياد موسى بن نصير ، وانقاد واتبع ، فتمم موسى الفتح وتوغل فى الأندلس الى البرشلونة فى جهة الشرق ، وأربونة فى الجوف الافرنجي وصنم قادس فى الغرب ، ودوخ أقطارها وجمع غنائمها ...) فأنبه وبالغ فى اهانته ، وزجه مصفدا الى ظلام السجن بتهمة

الخروج والعصيان . وقيل كذلك بل ان موسى هم بقتل طارق . ولكن ما لبث أن عفا عنه ورده الى منصبه ووضع الاثنان خطة الافتتاح ما بقي من الأندلس ثم زحفا وافتتحا برشلونة وغيرها من المدن والمعاقل . ثم افترق الفاتحان ، فسار طارق نحو الشرق ليتم القضاء على فلول الافرنج . فاستولى على قرقشونة واربونة . واكتشف أبي هذا الدرس في التاريخ الذي ألقاه أمامنا الأستاذ ابن عاشور وغضب عليه غضبة كبيرة وأخذ يدحض كل حجة ويقرأ كتب التاريخ على أنواعها ومؤلفيها أمثال البلاذري وابن عبد الحكم وابن الأثير وابن خلدون . لكن كثرة التناقضات من رواية الى أخرى زادت في هيجانه ، فأراد مقابلة الأستاذ التاريخ ، فرفض هذا . فبات أبي حزينا طيلة أسابيع . ولم يجد من سبيل للخروج من هذه الورطة الا في حجز كراس التاريخ الملعون ولم أسترجعه حتى يومنا هذا . فيتفاعل أبي بالاضاعة كلما طالبته به ، حتى الآن وقد صرت كهلا . فيأخذني من حين الى آخر شغف كبير لمراجعة هذه الدروس حول شخصية طارق بن زياد ووقائع فتحه لبلاد الأندلس ، وقضية الخطبة المشهورة ونسبتها ، وعلاقة طارق بموسى ، وغيره ابن نصير من ابن زياد ، وحكاية سجن طارق على يد موسى ، وخرافة السفن التي يزعم بعض المؤرخين أن طارق قد أحرقها ، قبل غزو الأندلس ، وهو على أهبة الاستعداد لخوض معركة الزقاق الشهيرة ضد لرذريق القوطي ، وبمساعدة يوليان ، القائد الأعجمي .

فضحت خوف كتابة غطت سرائرها بعصف ذابل هاجت الناس كمال أنت الآن بين يدي فلا تفلتن من سخطي ولا من عنفي أهتف أو أرافق رجة ترتاج في هتك البلاغة التافهة والتاريخ

المتلبد وانكسار المخزن اللغوي فعنفي الميمون تعلمته يوم سرق
أبي كراسي وتركني أحمل لوحدي هذا الاسم الثقيل طارق
كم صوتا تمادي منذئذ فى ارتفاع نخاعي الشوكي وتسلقه نحو
مسالك الطلح المرشح للخروج ولهجة الشعب يقول ازرف ازرف
أجري وراء القواميس أسأل ابن منظور ولسانه العربي كيف
عانى ليس من سمنة كما فعل ابن نصير بل من بلادة الخلفاء
وأذيالهم وجهل اللغويين المتحجرين والفقهاء المخلوقين ينقل أطنان
المخطوطات على جمل شامخ ومأجور من الاسكندرية الى بغداد
حاملا هذا اللسان العربي والدنيا حوله لا تبالي ولا تكترث
أجري وراء القواميس أستنجد با بن منظور الافريقي أجد
كلمة زرف يزرف زرفا بمعنى قفز ودنا وتسلل وفى الكلام زاد
فيه تقول أمي ازرف لقد جاء العساكر يا كبدي انتصب الخوف
تحت ابطي أمي مصاحبا عنفي رفقة شمس الدين ابن عمي
شريكي توهج فى بنود الحكم العسكري قبضوا عليه فى قرية
منعة تفل على ضابطهم حاصر صورة المأفون تلفظ بالدماء طلب
طباشير صفراء تشمم منها بضعة أصابع رمى رداء النوم بين
جفونه بالأمس كلمني أبوه وكان الجذب ما وصى به أبي
المتغايب قال الضابط ! MAIS IL EST DINGUE كان صاحب
القرار يقول هذا مؤدبك لمحته يدنو وينفخ فى سماق اللوح
يفرش لي الحصير يصوغ كمي من رنين الحرف ومن أنين الحرب
كانت الحرب أين طفولتي اختبأت وكيف أقص عن عسق يناجيني
الى باب الكتاب دخلت الجامع السفلي عند الصحن كان الضوء
بكيت عندما بلغني أن رفيقي ابن عمي صار فى قبضتهم يستنشق
طباشير صفراء ويتقيأ دما قان كان الضوء منحدرا أفق سلامياتي
وجلبابي يلف الركبتين لمحته يختار لي قصبا يقول أكتب

ويسألونك عن المحيض قل هو أذى أقول لا أكتب يقول أكتب
فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن أقول لا لا
أمي طاهرة عفيفة أمي يقول أكتب فاذا تطهرن فأتوهن من حيث
أمركم الله أقول لا لا أمي طاهرة لا هلولة فيها يصفعني يقول
أبي يا ابن الزانية يقول شيخنا هات رجليك أرفعهما يسرر الصبي
الأول الحبل والفلقة يشد الصبي الثاني على كعبي يضرب الشيخ
ضربا مبرحا يقول أبي لا تحاسبني الا بالجلد والعظم والدم
ينزف الدم أقول لا أمي طاهرة لا هلولة فيها رائحة ابطيها تعبق
رائحة الورد المرث طيلة أحقاب وشهور في قارورة الماء الزمزمي
أتى بها جدي يصوغ أخمص القدمين من رنين العصا باسم الحرف
كانت الحرب لمحته يصوغ أخمص القدمين من رنين العصا
لا أريد ازعاج أمي كيف أقص عن غسق باذنجاني وعن شفق
كبؤبؤة خروف العيد عند الذبح مخضوضرة مخضوضبة بزرقة
فولاذية لا يمكن حصرها بدقة في سجل الألوان القزحية السبعة
ترفع هي ذراعيها نحو حبل الغسيل استنشق ابطيها خلسة أجد
فيها رائحة جدي من خلال ماء الورد المرقد في كثير من الماء
الزمزمي أتى به من حيث أمره الله وقليل من زيت الزيتونة التي
غابت فاكهتها منذ أن مات ذلك الشيوعي يقول شيخ الكتاب
مد الجرح أيضا أكتب أرفض وجلبابي يلف قدمي أجبر نفسي
على المشي عليهما يقهقه الأطفال خنوعا وتخاذلا بابا سمينة وكال
الطمينة يا بوطي BUD ABBOT وصاحب القرار والخاتم
المطبوعة على كل صناديق الحوامض المصدرة الى جميع أقطار
العالم بما فيها جبلطارق اذن أحاسبك بالجلد والعظم والدم
يقول أبو فراس « هذا دمي في وجنتيك رأيته » لم أنس حنين
الأصابع العلوية والسفلية والشهوة الأخرى على سلامياتي

الاثنين والثلاثين مذاق عطر ماء الورد على خنابتي السابحة
قعالاته فى ماء زمزم أتى به أبوها عامل السكة الحديدية الفقير
رأيته يبيع جرائد الحزب السرية ويوزع مناشيره الممنوعة فى
القطارات كانت الحرب وكان الحزب مخفيا فى كل
أنحاء القطر يوزع أدبيات الحزب جاء بماء زمزم فى قارورة
صغيرة مفلطحة قال هذا للبركة بركة كل الفقراء على سطح الأرض
وضعت فيها قعالات الورد واحتفظت بها طيلة حياتها والشهوة
الأخرى على خنابتي بمذاقها العطري على أهدابي بمرآها
القمري أمي طاهرة وطاهران ابطاها المرقطان بسعجون الحامض
تقول لا تغضب ولو كان جدك الشيوعي على قيد الحياة لعاقبك
هذا سيدك سيد القرآن نسيت أصابعي بين الذهول والفتنة
رأيت أمي فى قعر البستان ترفع ذراعيها نحو حبل الغسيل وآثار
فحم زغبها المنقى ترسم خطوطا متزاوية كخطوط السكة
الحديدية التي كان أبوها يصونها كل يوم من الفجر الى النجر وأثار
فحم شعرها لا زالت مرسومة على بشرتها وهذا اليوم عنفي طالع
ضحك الأطفال رددوا يا سمينة بابا عجينة وكال الطسينة يا بوطي
يا طوطي نسيت أصابعي لما كنت أتردد الى الكتاب بين الذهول
والغرور والزندقة لماذا قتلوا ابن المقفع والحلاج لماذا أهان
موسى طارقا وأوقفه مكانه ورمى به فى السجن لماذا اخترع
التاريخ هذه الخطبة التي حفظها الأطفال فى المدارس وتغذى
منها الساسة ولم يكتبها ذاك البربري الزناتي سرق أبي كراس
التاريخ زاد فى التزييف اضافة أمي طاهرة وهذا اليوم فعنفي
طالع من سراديب الحسى والكذب والنفاق واللامعقول من أين
لها أن تفهم هي العفيفة الطاهرة زلة اللسان أو زلة الرجال أنا
المقصى عن عتبات الشيخ تضمد هي أناملي بأوراق التوت نأخذ
منها لدودنا المروض مأكلا يكشف لي دود القز دود الحرير

شطحات راسخة في الشوق لمناطق لم آته بعد من مسحها تفور
ضفاف الرمال بالرؤوس التي قطعت غدرة فاستدارت بها الأرض
جاء الجنود فمسحوا الأرض والعرض شبرا شبرا فرسخا فرسخا
بنوا مقصورات على أهداب الجبال والمرتفعات حشروا فيها سلاحا
وذخيرة وطغيانا رهيبا لا زلت أذكرها تلك المدينة التي هيأت
أمي يومها فجاءت من الجهة الأخرى صلصلة ليلة القبض على
شمس الدين يقول كيف يصاب المرء بمرض الخوف يا ترى
اشتهيته وقتلتني الشجاعة ماذا يقرأ هؤلاء الرجال على الميتة
في حفرتها تتدلى الجثة فوق الحفرة من هذه الميتة التي رموها
في جب القبر كما يرمى الدلو فظهرت على سطح الماء أوراق
الورد ما زلت أذكرها ضفاف الرمال تلك المتعرجة من خلال
المسالك والمواعر ما زلت أذكرها اذن في متم الصبا وتوالي
الشهور لقد ضاقت هي اليوم بأجداثها وأضغاطها وترامت
كوابيسها تتجول دارا فدارا حيث جاء الغزاة لخلع الحرمة علينا
فجاءهم رماة يحجون من كل موج وفوج يحول ما بينهم خندقان
وما خلفهم بحران أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم تحذر
من مغربنا رجل بالشام ملأ اسمه كتب التاريخ وهواجس صاحب
القرار سماني طارقا هز كياني هذا الاسم بثقله وحوانيت التاريخ
اكتظت سلعا مزيفة مغشوشة هل خطبته هي أم لا هل زناتي
أم همداني هل غار منه موسى كما غار من موسى سليمان
بن عبد الملك حجز أبي الكراريس كراس التاريخ وكراس الترجمة
وكراس الرياضيات $x^3 + 3x^2 - 3x - 1 = 0$ وكراس
اللاتينية تداعى استاذها بالمسألة كانت الحرب قال ترجم ترجمت

Lauda pueri nulla in mundo pax sincera in furore laudate pueri nulla

ابتهجوا أيها الأطفال ليس أبدا سلم نزيه يقتني من الغضب رأته

المدينة غاضبة متظاهرة متمظهرة وقد خرجت النساء على غير عادتهن فصلن حدود المساء بملاياتهن السوداء كانت الحــرب حسلت أمي شعارا شيوعيا احتفظت به بعد موت جدي عاتبها القوم على ذلك رفضت الانصياع ظن اللفيف الأجنبي أن الغربان تطاولت على المدينة وتبجح الخونة وزاخ الجبناء بأنها طير أبييل والمشايخ أيضا فالقضاة فعسي الحسين لا يضيع فرصة لضربنا ونهر النساء لكن أمي لم تتراجع ورفضت أن تضع رايتها جاءها فدائي (أحد أبناء عمي) كان يعمل من ذي قبل في مخزن صاحب القرار والخاتم يقضي سحابة نهاره في وضع الطابع على خشب الصناديق المعلبة حوامض مصدرة الى بلدان العالم كلها بما فيها جبلطارق GIBRALTAR وقد حرفوا اسمها الأصلي ولم يغضب صاحب القرار لهذا المنكر لانه تعلم كيف يفصل بين التاريــخ والتجارة رفضت أمي وضع الراية الحمراء أرضا ومن ينكر أن بقايا أمي انحرفت في الجب واستنقعت بشرتها الشفافة في مائه الرديء بعد أن كرست حياتها للاحتفاظ بقارورة صغيرة مملوءة ماء زمزميا ملأتها ببتلات الورد وأضافت اليها بعض قطرات من زيت الزيتونة المسنة والمهملة في مؤخر الحديقة ولم يزبر أحــد أغصانها منذ وفاة أبيها كانت الحرب انكسار المخزن اللغوي كمال الزوخ والفوخ زاخ يزيخ كلمة عربية قحة ماتت فقط لاستعمالها في اللهجة العامية زاخ يزيخ زيخا وزيخانا جار ظلم تفاخر تبجج اذن الزوخ والفوخ قال كمال فضحت خوف كتابة غطت سرائرها ... ذابل أنظر لسان العرب وقصة ابن منظور واضعه يؤجر جملا لنقل كل مجلد من الاسكندرية الى بغداد والكوفة حمولة جمل كامل لكل مجلد من يعرف هذا قال كمال هتف ورافق رجة لا ترتاح الا في هتك البلاغة التافهة والتاريخ المتلبد المتبلد قل أيضا هذه الكلمة ليست عربية قال كمال لابد من انكسار المخزن

اللغوي هذا وضعوا الكلمات فى القواميس وأهملوها كما أهمل
أبي كراس التاريخ لما فهم أن خطبة طارق ليست له وأيضا
كراس الترجمة اللاتينية كان الأستاذ يردد موتوا علماء لا جهلاء
يا أولاد ابتهجوا أيها الأطفال فلا سلما نزيها قط يمكن أن يدوم
اذا ما أمضيت معاهدته تحت وطأة الغضب والصخب جيد سينفذ !
NULLA PAX SINCERA IN FURORE كانت الحرب •

استطاع شمس الدين أن يرضي كبرياءه منذ البداية ، منذ أن
أرغم العساكر على احترامه • فما كان ينبغي عليه أن يفسح لهم
المجال للشتائم العنصرية ولرفع الكلفة بينه وبينهم • بدا أهدأ
منهم • نظر الى السبورة البالية • أخذه الحنين الى الطباشير
الصفراء وأرضية السطح التي كانت تغطيها شعارات صحبة ابن عمه
طارق : ABAT LA FRANSSE قال طارق كلمة ABAS تكتب بال
S فى آخرها ، لا بال T • تعنت هو • تراهنا • وأخيرا
استنجدا بالمنجد • لم يخجل شمس الدين • قال أنت تعرف كل
شيء • استطاع اذن أن يرضي كبرياءه بعد أن قبضوا عليه وأخذوه
الى أحد مراكز التعذيب مربوطة قوائمه بحبل معقود حول عنقه •
تحصن بكل بساطة • لاحظ أن الآلة الراقنة عتيقة جدا وأنها من
نوع REMINGTON وكان عمه يمتلك العديد منها فى ورشة
الاستيراد والتصدير • حدس نوعية الآلة دون أن ينظر اليها •
عرف نوعيتها بسبب الجعجعة الحديدية ليس الا • لا يكاد الواحد
عرف نوعيتها بسبب الجعجعة الحديدية ليس الا • لا يكاد أحد
الجنود يتكلم الا لماما • كان الضابط الذي يرأسهم يقلم
هذا والذي تذرع به منذ أن طلبوا منه الاعتراف بأنه شارك فى
عملية ذبح الجنود التابعين للفيف الأجنبي الأربعة أو الخمسة •
صرح بأن هذه التهمة خرافة • كرر الكلام نفسه مدة أيام دون

أن يغير فاصلا منه ، وذلك بصوت رتيب وعلى الوتيرة الكلامية عينها • كان القائد يتجنب ما أمكن نظرة شمس الدين الهادئة تلك التي تفصح عن أشياء كثيرة بل وعن احتقاره له • قال شمس الدين أثناء التعذيب : ما مت تحت صفعات الوالد فلن أموت تحت تعذيبكم • مستحيل ! كان الجنود لا يعرفون كيف يتعاملون معه وبعد أيام طويلة من الضرب والتعذيب والتنكيل والاهانة طلب طباشيره أتوا بها • قال : أريد طباشير صفراء ، لا بيضاء • لبوا رغبته • أخذ يستنشق الأصبع بعد الأصبع بعد الأصبع • قال الضابط ! JE VAIS TE LA FOUTRE AU CUL ثم يتحرك له ساكن • كان المعذب يتبجح بعلمانية طرقه عند استنطاق المناضلين • وجد نفسه أمام طريق مسدود هذه المرة • أحس شمس الدين ، بعد أن فشل الجنود فى ارغامه على الاعتراف بعملية ذبح الجنود الخمسة ، بالانغلاق الرائع الذي يتمثل فى التنظيم المعماري للمدينة التي تربى فيها والتي قام فيها أيضا بهذه العملية الفدائية الصعبة ، صحبة جماعة من أنداده ، دونما استشارة المسؤولين • وكان يعرفها أحسن المعرفة بحيث كان يلف بها ويدور فيها ويتسرب حتى الى المناطق المحرمة على العرب • كان مبهورا بالمدينة الأوروبية . بعماراتها الفخمة الآهلة المسقوط ، وشوارعها المقذوفة بشكل أرعن ، وأزقتها المنتعشة بزحمة البشر والكلاب والسيارات ، وهو يحاول شق طريقه بينهم ، فيشعر بالغربة والغرابة • خاصة وان هؤلاء الناس الذين كانوا يعيشون فيها ، أولئك الذين غرقوا فى السوداوية والبرودة وأقلعوا عن الجعجعة أو كادوا ، وتبرقعوا بالملابس القطنية وبرزوا بنفس الكثافة من خلال الواجهات الزجاجية الفاخرة والسلع المتراكمة ووسط المارة الذين يتقدمون بحركة آلية جامدة ، أو حلقات حلقات ، منضبطين كأنما هم مصبوبون فى قوالب من

الصلب أو من الاسمنت المسلح أو مجمدون داخل صقيع عيونهم المزرقة المغيمة ، وقد تقلصت حركاتهم وانغلقوا دون أي ابتسامة تنفذ منهم ، وكأن هناك قوة ساحقة تحركهم حركة آلية • وهي حركة تتجسد في ضخامة المباني والكتلة الهائلة المتمثلة في الكاتدرائية وفي التشكيلات الهندسية التي تفرض نفسها ، وتسبح مع ذلك في ضوء باهت ، على الرغم من النور الكهربائي الذي يبدو وكأنه لا يتوفر على الطاقة السائلة الكافية حتى يشع في المصابيح ويفتح الحياة في صدور هؤلاء الرجال والنساء المقيدين وينير تلك الصقالات المعقدة في هياكل الاسمنت المسلح والزجاج والصلب والحديد • وقع في روعه أن الصدمة التي أصيب بها آنئذ لا تنطوي على أي معنى ، ذلك أنه اعتقد دائما وأبدا أن الناس الذين جاؤوا لاحتلال بلده ما كانوا بناة حقيقيين ينطوون على ارادة استشرافية تشدخ الفضاء وتفتحه وتطرحه في المدى الرجراج • على أنه ما توقع قط مثل ذلك الحراك والتململ اللذين وقعت عليهما أنظاره عبر تلك الزحمة الكثيفة المتلاصقة من البشر ، ساعة الخروج من المكاتب وحين اغلاق المتاجر والهبوط من عربات الترام المكتظة عن آخرها التي لا تكتفي بأن تقطع الفضاء بخيوطها الكهربائية مندفعة مثل بروق زرقاء ، بل تحدث صخبا صادرا عن الحديد العتيق فتمزق الصمت المسيطر على الناس وهم يعبرون المرور ويقولبون حياتهم وفقا لمبادىء العزلة الصلبة • وتأكد أيضا من أنه في وسعه أن ينظم نفسه في هذا الجزء من المدينة هناك وأن يزرع الرعب أيضا لكن ••• ما كان يخفي على نفسه هذا الأمر البديهي وهو انه ما كان يستطيع قط أن يصير فدائيا لو أنه بقي الى جانب أبيه ذلك الرجل الجبان الخنوع الذي استسلم الى أمر الأجانب •

، جعل يذرع المدينة وينسرب عبر جماهير النسوة والرجال المرهقين الذين جحظت عيونهم وانسحقوا تحت كتل الحجارة المنحوتة ، المبرقشة التي تداولتها الأيادي البشرية العديدة الممزقة بفعل الأشغال الكبيرة ونتيجة لغزو أولئك الذين تعنتوا لكي يجعلوا من العالم كاتدرائية واسعة تقوم هندستها الصارخة مقام عقيدة لا ينبغي النيل منها أو تجاوزها • يشعر شمس الدين بالجو الخارجي المتموج الرجراج بفعل لفح الشمس ، وهو اشعاع تدركه الحواس أكثر من ذي قبل ، بسبب هذا العرى المفاجيء والخلخلة المداهمة والثبات المنتفش بل ، وخاصة ، بسبب الصمت الذي لف على حين غرة تلك العمارات الهائلة المبنية فى شكل دائرة ممدودة الى الأمام والى الوراء المهجورة ، الملتوية وهي تتعاقب فى صورة مويجات فضائية لا تعرف كيف ولا متى تتطامن • ومعالم هذا العمران المخطط بالاسمنت المسلح غير واضحة هي الأخرى بل انها تجعل حدود الفتحات كلها تلوب أمام عينيه وكأنها انبجست من الصخر وأشعت بواجهتها الزجاجية الناتئة مثل درج ترك مفتوحا ؛ وأبصر شمس الدين خلالها وجوها مشوهة بفعل انبعاج الزجاج ، رقيقة ، ضعيفة ، كأنما هي أطياف على شفا هاوية • وجعل ذلك المشهد كله يرف فى الجو الصفيق الذي انطبعت عليه الألوان مثلما تنطبع فى حلم نهاري صامت يذكره بعشيات حيه حيث تعود أن يقضي وقته فى لعب الدومينو والداما داخل عرين تاجر من تجار القرفة واللحم وشحم الغنم المجفف المقدد ــ ما أشبه ذلك بالرائحة المتفنة المنبعثة من الجماهير الراشحة بالعرق ؛ الغارقة فى ملحها ــ على حبال تخيط حدود ذلك الحانوت الصغير • وان هذه التشابكات البالغة التعقيد بفعل الخيوط المتصالبة ؛ المتقاطعة ؛

المتسربة فى الفضاء المظلل الذي يهجم على الأفق كأنه صواري سفينة مهلهلة يتلاعب بها الريح فى عرض البحر . وتنسد المنافذ والمشاهد ويتلطخ كل شيء بالصفرة ، صفرة الشحم ، فتغيم أعين لاعبي الدومينو الذين ما عاد فى وسعهم الارتحال بخيالا تهم والتركيز فى اللعب . الآن وقد بعدت الشقة بينه وبين ذلك الزمن حين جلس على أحد الكراسي داخل الحانة ، وقد تشنجت يسراه لطول ما ضغطت على الموس ، يسائل نفسه فيما اذا لم يكن ذلك التشابك من حبال القنب وتلك الطريقة الفريدة التي رصفت بها قطع الشحم المملحة مجرد وسيلة لرؤية العدو وهو قادم عن بعد أو الدخيل الأجنبي وهو فى زي دركي أو شرطي أو بواب ، على أن ذلك كله يرمى به فى تلك الرحلة الطقسية التي قادته ، وهو طفل ، من الحي العربي حيث يقطن الى الحي الأوروبي الممنوع عليه . خاصة وأن الشاشة التي تنطبع عليها الذريات هي عبارة عن أشواك تنغرز فى صدغية المارة بذلك الصفير الشبيه بصوت قطعة قماش خشنة تمزق شيئا فشيئا . وتتضاعف الصورة وتتعدد وتلوب وتغيب ثم تعود تبعا للتقوسات والانحناءات والتدرجات والمنعطفات والحدود وتستحوذ عليه استحواذا ذلك انه قضى وقتا طويلا داخل الحانة وسرح فيها بعينيه فانتهى به الأمر الى الاغضاء عن أنه بقي شاعرا بوجود المسافرين الآخرين الى جانبه وقد سافروا على متن السكر والنشوة أو أغرقوا فى الهسهمة وانغلق كل منهم فى أناه المعقدة . وضاق ذرعا بذلك ، وأحس بضربات قوية على صدره أكثر انتظاما من نبض قلبه ، مخبأة تحت بشرته بخفقان لا يكاد يسمع ، معقدة عضلاته المتقلصة المشدودة الى شرائح القلق المتعددة . لقد سبق له أن علم بسبب مجيئه الى هذه الناحية من المدينة والتي ليس له ما يعمله فيها ،

هذه الناحية التي خاطر فيها بحياته وبحياة الآخرين لأنه كان على دراية بالمطاردات التي حدثت منذ اندلاع الثورة ، وبالجثث الملقاة فى نهر الرمال ، وبالرصاص الذي صوب على الأحيـاء الفقيرة ، وبالاعتداءات القاتلة على أبناء بلـده من قبل بعض المضللين الذين يلقون بهم بين أيدي جلاديهم وذلك تحت واعز الطمع واللهفة ؛ خاصة وان هؤلاء الجلادين قادرون على اخراج أسلحة نارية بسرعة فائقة ، وأسلحة للترهيب ، ومطارق ، وقبضات حديدية وسكاكين ، لذلك انطلقوا بكل شراسة يوجهون طعناتهم بسرعة فائقة وحقد يمحق الأعصاب ويسحق العظـام ويغطي البشرات بجروح فاغرة ينبجس الدم منها اذا ما مزقوا الأوردة بضربات قاطعة•ويندفع الدم بشكل دفقة زرقاء ليجعل من أجسادهم المشوهة ، المحروقة المغرقة ؛ المدفونة فى مقابر السيارات ، عبارة عن جثث اسفنجية ملأى بالثقوب التي يتسرب منها القلق المتراكم منذ أن وطئوا أرض هذه الحانة • لكنه احترس الاحتراس كله واستعد لا للدفاع عن نفسه فقط بل لقتل جميع الذين لا يريدون التشكيك فى وجوده بل وفى كينونته ذاتها وهويته وجوهره • وما كان يرغب حتى فى تحديد موضع الصورة الذهنية (كتابة الشعارات برفقة طارق ابن عمه وشريك طفولتـه ، على سطح الدار •) على أن ذلك لم يمنعه من الخوف ومن الاحساس بأن عينيه تطرفان فى مواجهة الوميض الخارق لذلك القطار التاريخى الذي يغرق فى الأنفاق ويتسلق المهاوي ، ويعاود النزول الى السهول حتى انه يتنضد عرقا ، ويتقاطر عرقه ذلك لزجا ، مالحا ، على جنبه النحيفين فى شكل خيوط راشحـة تنتهي فى تجويفـه الكليتين • انه على وعي بالشرخ الذى حدث داخل جسده ، تتحة قراءة الصحف

Nous sommes ici en terre Française et nous allons le montrer

ومقاطع الجمل والحداد المتواتر والتوابيت المختومة والعناوين المفروضة : Une bande de hors-la-loi anéantie ومن ثم فقد كان مستعدا لأي شيء طاريء . محترس الاحتراس كله . على قدم وساق لكي يكون أول من يسدد ضرباته بدلا من أن تنطلي عليه الحيلة . هو على أهبة الاستعداد ليكيل الصاع صاعين . بل انه مستعد لاتخاذ المبادرات حتى وان ترك رأسه يسقط داخل كيس الجلاد ... كان شمس الدين خائفا من جميع الاختلاطات والتمازجات سواء كانت فى شكل تشابكات وتداخلات أم فى شكل تجمعات وتراكمات متنوعة متولدة عن ظاهرة تاريخية فريدة ، موحدة ، وهي ظاهرة تتجاوزه بطبيعة الحال لكنه كان على وعي بها وان كان ــ لصغر سنه ــ مثل هذا الوعي مبهما غير واضح ، مدركا بغريزته الفطرية أن سر غرابة المحيط الاجتماعي والأحداث التي كانت قد جعلت منه مجرد عامل من العوامل الكامنة ، يكمن فى ذلك التضامن الذكي فيما بين الكائنات والوقائع والعناصر وفى انصبابها فى تلك الحزمة الضوئية القاهرة التي تسمى : التاريخ . فيستمر التعذيب .

صفراء ، شهباء ، فصفراء من جديد . وتنطلق الرافعة كالسهم الثابت ، ناطحة عرض السماء الزرقاء بجناحها العلوي بل وتشق طريقها على غرار باخرة تخوض غمار اليم ، وما هو فى الحقيقة الا النسيج السائي . فكأنه بها تفصله أشكالا وألوانا وتجزئه أنماطا متعددة . وتمسح الرافعة الفضاء بجناحها المتحرك الآلي وتمر أمام قرص الشمس الضخم والمفلطح بينما يحدس هو أن هناك عضوا آخر راسخا ، جامدا ، مكبلا ، مزروعا ، مغروسا فى الأرض . الا أنه لا يراه من مكتبه . أما الجزء المتحرك فيكاد يرسم ظلا نهائيا على زجاج النافذة المغلوقة تلك التي تلعب دور

المصفاة الهائلة بين العين والشمس • فتتراكم عندها نتف من
الظلمات الطفيفة على وجهه فيشعر وكأن أحدا يسرر خرقة قطيفية
ناعمة على قسماته • تجيء الآلة (أو بالأحرى نصفها المتحرك)
نحوه فيخالها محطمة زجاج النافذة وزاجه عضوها هذا داخل
قاعة الفحص ، لا محالة • على أنه لا شيء من ذلك يحدث .
رغم سرمدية الحركة المتواصلة . المكتسحة الجو بأسره وقد
جزأته تبعا للقانون الهندسي والسلم الصوتي الذي يقترحه عزل
المادة الزجاجية بمعدل ما دون الصفر • صفراء • حتى اذا ما
أغلقت العين بدت وكأنها سوداء • تسير الحركات ـ الآن ـ
على وتيرة متتالية ، متعاقبة متجاوزة ، باستثناء هذا النوع من
الغمغمة المنبثقة من الهواء الخارجي نفسه ، فلا تصل ـ فى
الحقيقة ـ الى مسامع الشخص الجالس وراء المكتب المقابل
للنافذة التي لا يتراءى من ورائها الا عضو الآلة الصفراء
(ثم الحمراء) المتحرك ، وهو من نوع POTAIN •
أما الآلة الحمراء والتي ركبت حديثا فهي من نوع BOUIGHES
بل هي مجرد انطباعات ذهنية لعلها ناتجة عن ضخامة الآلة المعلقة
فى الفضاء والبارزة بوضوح من خلال الاطار الضيق ، نسبيا •
ومثل هذه الانطباعات الذهنية التي تصل الى حجرة الفحص :
مثل حفيف الحرير اذا ما تلمسه الأصابع بشيء من العنف •
ولا تنفك الرافعة ـ مهما كان لونها الآن ـ بين السهم والطير
شكلا ، لا تنفك ـ اذن ـ تتحرك فى صمت مذهل رغم تلك
الخفخفة الموهومة (رفرفة أجنحة الطيور ؟) • فتواصل خلسة
تزحلقها وانزلاقها وتشعبنها من الأفق الأزرق الى الأفق
الأزرق وكأنها تبحث عن فريسة ما تفترسها فتمر بالقرب من
الطيور المحلقة فى الأجواء ، فتكاد تلمسها ؛ لكنه ، لا يحدث

شيء يذكر ••• صفراء اذن • شهباء أيضا وصفراء على غرار الخيول الواقفة خلف خليج الزقاق ، على أهبة الاستعـداد للانطلاق في العراك والمكر والمفر والادبار والاقبال دون ما هوادة وشفقة • وهي تحمل ــ هذه الخيول الصفراء ــ فرسـان الطليعة بمن فيهم ضاربو الطبول ونافخو الأبواق وحاملو الرايات وطارق بن زياد نفسه و ـ لعل أيضا ــ طريف بن مالك النخعي مساعده • وقد اصطفت هذه الخيول العشرة على خط واحد ، باستثناء أحد ضاربي الطبـول الذي كان يتقـدم الكوكبـة العسكرية • ومما كان يلفت النظر أكثر ، كون هذا العازف على الطبل كان واقفا على فرسه ، بعكس الجنود الآخرين الذين كانوا قاعدين على سروجهم وسيقانهم مشدودة حول أجناب هذه الحيوانات الرائعة التي تكاد تمحو وجود العساكر بمن فيهم قائدهم المبرار ومساعده طريف بن مالك النخعي وقد أغبـره التاريخ وطمسه لأنه كان يعيش في ظل قائدين عظيمين ، متطاحنين ، متكارهين ، متغايرين (وكتب طارق الى موسى بالفتح وبالغنائم فحركته الغيرة •) ، أي في ظل طارق بن زياد وموسى بن نصير الذي لم ينج هو بدوره من اهانة الخليفة الوليد بن عبد الملك (وكتب الوليد بن عبد الملك الى موسى بن نصير يحذره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة ويأمره بالعـودة • فارتـد موسى مرغما ، آسفا • ولكنه تمهل في العود حتى يتم اخضاع معاقل جليقية التي اعتصمت بها فلول القوط وبينما كان موسى يتأهب لخوض هذه المعركة اذ وصله كتاب آخر من الوليد يستدعيه وطارقا ويأمرهما بتعجيل العودة ، لما نمى اليه من خلاف موسى وطارق ومن طمع موسى ودهائه في الاستحواذ

بذلك الملك الجديد الثاني خاصة وان بلغ الوليد بن عبد الملك عن وفرة الاموال والتحف التي اغنمها موسى بن نصير من الأندلس •) وكان ضارب الطبل هذا يتقدم المجموعة بخطوتين أو ثلاث • أما آلات الموسيقى فكانت مختلفة الالوان والأشكال والاحجام • وأيضا : بالنسبة الى الرايات والأعلام . فمنها المستطيل ومنها العريض ومنها الصغير ومنها الكبير • كما كانت ألوان هذه الرايات تختلف باختلاف الراكب الذي كان يحملها • فهناك اللون الأحمر والأمغر والعنابي والرمادي والابيض الخ • أما ملابس المقاتلين (لم يكن هنالك ـ على المنمنمة ـ أثر لسلاحهم) فكانت هي أيضا مختلفة الألوان ولكنها متباينه الأشكال ، مثلها مثل العمامات الملفوفة حول رؤوس العساكر المحتشدين أمام الحصن حيث اجتمع القوط ، وهم على أهبة الاستعداد للانطلاق نحو سهل شريش ، والكل ينظر الى الأمام من جهة الغرب فيخيل الى الناظر أن بأعين هؤلاء حولا • وقد ينتج هذا الانطباع عن كون الرسام هو فى الناحية الشمالية الغربية ، أي تجاه الكتلة العسكرية التي وقف أعضاؤها وهم على استعداد لمواجهة العدو • والغريب فى الأمر أن جميعهم كلهم مجردون من السلاح وفى حالة وقوف وانتظار • أما اللون الأصفر فقد كان يسيطر على سائر الألوان فى المنمنمة العتيقة التي لا تبرح معلقة على الجدار المقابل لمكتب الأب الكائن فى وسط المخزن الضخم حيث تعبق رائحة الحوامض وذلك بعد أشهر من موسم تسويقها • وعلى تكاثر الأصفر فان اللون الأحمر ـ الأمغر أصبح ملفتا للأنظار أكثر من سواه من الألوان الفاترة الأخرى ، المتواجدة فى الصورة • ذلك أن الفارس المتقدم كان يمتطي حصانا أحمر قان ، فأحدثت بوصته نوعا من البقعة

الساطعة . على أن هذه الألوان كلها ــ بما فيها الأحمر والأصفر والأجاب ــ بدت فاترة بعض الشيء ، آكروماتية ، صبغية وغير لونية . وكأنها غسطت في المياه بعد نهاية عملية الرسم هذه ، مباشرة . وان كان هذا الانطباع مجرد استيهام خاطىء ، فيأتي الزمر ليلعب دوره . فيكون هذا الشعور بفتور الألوان ناجما عن قدم المنمنمة .

ومنذ يوم وفاة أمي لم استطع من التخلص من رائحة الموت التي تعودت شمها كلما دخلت المنزل القديم وحتى غرفتي التي غشى طحلب أتونه جدارها الشرقي حيث النافذة الفردية من نوعها ، المزركشة أطرها . ولعل رائحة الموت هذه التي ادخرتها في دهني منذ زمن طويل . لم تقتصر على الانتشار في الحجرة التي ماتت فيها . بل انتقلت الى الغرف الأخرى برمتها فاستولت حتى على البستان . ولم تكن الرائحة هذه تتكون من عامل واحد فحسب ، بل كانت عبارة عن مزيج من الفطر المستنقعة والعرق العابق المتسرب من أجساد قراء القرآن (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله به ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ذوي الأجسام النحيفة والأسمال البالية والأنهام الرهيبة والأصوات المتخنخنة ؛ ومن الكافور الزافر من الكفن الأصفر (لون الخيل المصطف أمــام خليج الزقاق ؟) ؛ ومن الجاوي المتعالي من الكانون اللهاب وهو يدور على راحة احدى الخادمات المقربات منها ، وما انفكت أمي طيلة حياتها من كن كل محبة وود واحترام لخادماتها . فهي لم تنس قط أي أصل هو أصلها المتواضع ، الفقير . استحوذت

الغسالات على جثة أمي • رأيتها ملقاة على الأرض ، كومة من اللحم والجلد والعظام • كان جسمها نحيلا وبشرتها شفافة وعيناها مغلوقتين وفمها مشبما بكمامة ربطت من أسفل ذقنها حتى أعلى جمجمتها • وكأنها رفضت الصمت عند مماتها وهي التي لم يسمع لها صوت قط طيلة حياتها • لم تفارقني رائحة موتها منذ ذلك اليوم ، يوم وفاتها • جاء أبي الى الدار يوم الجنازة وقرأ عليها آيات (خفت أن ينسى نفسه فيأخذ فى تلاوة تلك الآية التي رفضت كتابتها ، أثناء الطفولة) ، بينات ، وكان قد هاجرها منذ أربعين عاما وتزوج عليها عدة مرات • لكنه لم يذرف عليها ولو دمعة واحدة • وكأنها ، أمي ، انما أرادت بميتتها هذه الهروب من هذا المستنقع العائلي المخضوضر ، ذي الأروقة العميقة التي تدور حلزونياتها حول تلك الحديقة التي لم تفتأ تكوم الأوراق والأغصان والجذور والأشجار ولأعشاب والطحالب ، حتى أرغمت صاحب القرار والطابع على تسييج كل المنافذ بسياج معدني ، سرعان ما فقد صلاحيته لغزارة النبات فيها وخصوبة التربة • فازدادت عتمة المنزل وأصبح جوها لا يطاق • فلا يسكنها الا العم حسين بصحبة زوجته نانا ، أم شمس الدين • أين أمي ؟ ماتت أمي • طفولتي اتسبت لمحنتها • كان أبي قد أقصاني من عتبات حنانه لكثرة زوجاته وتكاثر نسله• روت لي أمي كيف خرجت النسوة ذات يوم وكيف نظمن تلقائيا مظاهرة صاخبة وكنت آنذاك أعيش محن الضور والحشورة • كانت الحرب • ألقي القبض على شمس الدين • صفق أبوه ، العم حسين ، لهذه الواقعة • ذهب الى مقر الجيش الفرنسي وتبرأ من كل أعمال ابنه ووقع على وثيقة يعترف فيها بأنه سوف يساعد الجيش الفرنسي على محاربة المقاومة • هذا ما قصته لنا أمي أنا وشمس الدين • قالت أيضا ان النساء المتظاهرات رحن

يقذفن في الهواء فقفهن المملوءة قمامة وخضرا متعفنة وتركنهــا تسقط أرضا بعد شقها الفضاء كالسلاحف المسلحفة المتهيجــة المتفاترة المتحلقة فوق رؤوس العساكر • وكان بائع الاسفنج التونسي يبكي عند اهدار زيته من قبل المتظاهرات اللاتي أحرقن بهذه الطريقة وجوه العديد من الجنود • كانت المدينة مغتاظة ، فخرجت النساء على غير عادتهن • فصلن حدود المساء بملاياتهن السوداء ونشرتها كأجنحة الغربان • انتشرت في المدينة صــلاة الجنازة • كان طفل يلعب هناك على أحد السطوح بقفص ملؤه الطيور الصفراء • فأشار الى عصافيره المروضة بالتبول على الفرقة الغاشمة • كانت صلاة الجنازة وصلاة الغائب • وما أن سمعوا الأناشيد الوطنية تنبعث من حناجر طيور الكناري ، حتى أشهر الجنود حرابهم وراحوا يقطعون كل ما يصادفونه ، فقطعوا رأس الطفل . ففصلوه عن جسمه بحذاقة ومهارة •

وهرول العم حسين الى مركز الجيش وصرح بأنه يتنكر لابنه نهائيا • قلت له في يوم من الأيام ان هذا الابن هو خيرة الناس • كان عمي واقفا في وسط الشارع المخصص للمشاة ، واقفا كأنه لا يعرف الا هذه الوقفة منذ بداية التاريخ ، وقد بدأ يشيــخ بسرعة • كانت عيناه تحملقان في بلاهة وسذاجة وقد سمعني أثني على ابن عمي • واذا به يفقد الكثير من عنهجيته وجسمه ييبس ، فراح عنقه يسبح في طوق قميصه لفرط ما هزل وقد برزت الآن ياقته فبدت عريضة ، فضفاضة ، لا حد لها • وكأني بهــا صنعت من الورق المقوى ، فبرز منها عنقه المتكمش كأعناق السلاحف اذا ما تطاولت • فأصبح جسمه عبارة عن كدس رخو من العضلات والقشور الذابلة الرثة والشارات المتلاشية • كانت عيناه الرمستان تحملقان في وجهي، لكنه لم يجرؤ على معارضتي •

كررت : شمس الدين ابنك من خيرة الناس • كان الرجل ينضح
بتلك الخسة وذاك المكر اللذين عودنا عليهما • فبدا لي وهو على
هذه الحال وكأنه يتحدث بفمه الأدرد وعينيه الذابلتين فى آن
واحد • حاول أن يغير من مجرى الحديث وتنقل بسرعة خبيثة
الى موضوع آخر • قال : مسكين أبوك لم يسعفه الحظ مع
النساء • فلم أرد على هذه التحريضات • تركته يسبح فى بحر
كلماته وجمله • وكأن صوته يأتيني من قاع العالم • حاولت
توديعه فأتخلص منه • سعيت الى مصافحته بدون ما جدوى •
حوتة مطلية بالصابون • أتذكر مقامات الترجمة فى مكتب الأب
حيث المنمنمة المعلقة على أحد الجدران • يقول : مسكين أبوك
••• لم يسعفه الحظ •• •شوف أنا ونانا ••• فى سعادة ورغد
عيش ••• الحمد والشكر لك يا رب العالمين • يقول أبي ترجم
يا ولد • كان شغوفا باللغات والتاريخ والتجارة والرياضيات •
يحب الترجمة من اللغات القديمة • هاتنا يا ولد بنص سلوسته
حول حروب يوغرطة :

Igiturquarto denique die haud longe ab oppido cirta
Undique simul speculatores citi sese ostendunt ; quare
Hostis adesse intellegitur. Ita iugurtam...

يضيف أبي : ترجم كلمة كلمة ، حرفيا • فأترجم :

IGITUR	وأخيرا
QUARTO	بعد انقضاء اليوم الرابع
DENIQUE	ليس بعيدا
DIE	بمسافة يوم
HAUD	على أكثر
LONGE	تقدير

مــن	AB
موقــع	OPPIDO
سيرتــا	CIRTA

مسكين أبوك ! أراه يفلت العنان لنفسه مرة أخرى لما وجـد عندي من تردد واحتشام ازاء هذا التعنت وسوء الأدب • لقد نسي الرجل نفسه • أنا ونانا فى نعيم عظيم ••• وفجأة يغرق فى الضحك • لم يعد يطيق أكثر • لقد كبت نفسه الخبيثة مدة طويلة من الزمن خوفا مني ومن ردود الفعل ، فيمتنع عن الضحك والازدراء • لكن سرعان ما يغرق العم حســين فى الضحــك والقهقهة والتلاعب ، منتصرا ، بأرزا أسنانه المزنجرة ، العفنــة المتقللة ، المطلية . المتقلحة • واذا بي أفقد توازني • أسعــر كالأعشى • أشعر به وكأنه على وشك الانتصار فى هذه المعركة المضمرة • الله يسامحو حسونة خوية ••• أما شمس الدين فهو سكير سيصلى نارا ضارية ••• أبقى مكاني • متجمدا • معدوم الصوت • فاقد الحركة • مما يشجعه على استئناف بث سمه الفاسد ، فلا أعرف كيف أعامله وقد عيل صبري • أخذت أحاول التملص من قبضته • قلت : أستأذنك عمي ••• أشوفك بخير ••• سلم على نانا ••• فلا يريد السماع الي • بل يستمر فى هرجه ومرجه واستهتاره • وفجأة أقرر أن أصمد فى وجهه ، أن أرد له الصاع صاعين • قلت : شمس الدين يشرب باش ينسى الي أبوه خائن ••• ألم توقع اتفاقا مع ضابط المخابرات الفرنسي للافشاء له بكل ما يسقط فى أذنيك ونحن نخوض حربا جهنمية ؟ بهت الذي تنافق • كف لتوه عن الضحك • أصبح أبكــم • رأيت الخوف يتلص من وجهه ويجعله أبشع مما هو عليه • وقف مصقوعا ، مصعوقا ، مبهوتا ، مهبوتا • أضفت : أكنت

،مان أني لن أصارحك قط فى موضوع خيانتك هذه ؟ لم يفـه
، المة . ظل واقفا فى مكانه لا يتحرك ، واقفا على حافة الطريق .
،ـسترقا النظر الى المارين وكأنه يخاف أن يكون أحد قد سمع
،ا قلت له . واذاك ظهر لي فى هزالة جسمه وفضفضة ثيابـه
وذعر عينيه كالفزاع الذي كنت ـ وأنا صغير ـ أضعه فى قمة
التوتة ، خاصة فى موسم تربية دود القز . فيتسنى لي اطعامـه
من أفخر أوراق التوتة التي كانت فى وقاية عن أضرار العصافير
بفضل هذا الفزاع ، ذاك الذي لا تقهره العصافير . أما هو فقد
ظل مكانه واقفا . خفت أن يغمى عليه لشدة ما كان فيه مـن
تشنج . رأيته مهزولا ، تافها ، متروكا . حقيرا . مغروسا فى
عزلته الأبدية . قلت فى سريرتي روح لنانا ترضعك وترضيك
يا جبان ، يا شرير . يا خائن . ظل تعيس المنظر وقد أخـذت
أقراص الشمس المتحركة وحلقات الضوء الملتوية تتعاكس من
خلال أوراق الأشجار على وجهه فتبقعه بقعا ، مما يزيد فى وجهه
المسكين (ومنها جاءت كلمة MESQUIN الفرنسية) والمصفر
خضرة غريبة ، مخيفة وكأنها نابعة من قعر الأرض أو آتية من
وراء ذلك التاريخ الذي يسحق من يعاكس مساره .

القســـم الســادس

فتحت كتابا • رأيت صورا كثيرة • رسخت احداها فى ذهني :
كان الرسم يعبر عن شيء ما غامض ، معتم ، بني اللون أو ــ بالأحرى ــ أمغر ومدمي • أما السماء فكانت نحاسية ، تلتهمها النيران صوب الأفق ، فتتفرقع الشظايا فى الأجواء بطريقة مهولة ، اهتزازية ، وتظهر هنا وهناك انعكاسات الحرائق البرتقالية فتصل ألسنتها الى جوانب الخيل وتحت حوافرها المتصافنة ، المتزمهرة • وأيضا : تبدو على الصورة أعين النسوة (وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان وبنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوي التيجان •••) المتزائغة ، الخارجة من محاجرها ، المليئة رعبا وهلعا ، وهن فى وضعية من يفر هاربا متسللا بين أجساد المتقاتلين وأحصنتهم • وكان بعضهن يجر أطفالا ويحمل رضعا قد غط الزبد أفواههم الصغيرة فتظفي على هذا التراكم من الموتى طابعا هزليا ومضحكا • ولعل هذا الانطباع ناجم عن غزارة الدماء المتكاثرة والمنبثقة من جروح تنزف دماء حمراء كالفواهات والشلالات الهائجة المزبدة ، لا هوادة فيها ولا حد لها • فمن أين لي هذا الكتاب ؟ انها نصوص الترجمة • نصوص كنت أترجمها ، مختصة بالفتح الاسلامي الأندلسي وقد راح أبي يترصدني ضاربا علي حصارا هائلا • أترجمها حرفيا • كلمة كلمة • فلا أبالي بمعانيها أو ما فيها من منطق داخلي • وبدون

اللجوء الى القاموس اذ كان يحجزه أبي كلما اقتضى الأمر ذلك • فلماذا هذه الرقابة الرهيبة ، يا ترى ؟ وأنا منهمك في العمل ، في القبو ، حيث كان مكتبه ؟ كان يقول أبي : ترجم ! أحمار أنت لتستعين بالقاموس ؟ بالمنجد ؟ ••• لا ينجد الا الضعفاء •• ترجم يا ولد ••• والضعفاء مآلهم الفناء • ترجم • فأقوم بهذه الترجمة الحرفية ، مكبا على نصوص المعارك والمواقع والوقائع ، ورائحة الموتى تطاردني فأحاول ارضاء نزواته • وتلاحقني على وجه الخصوص رائحة موتها (أمي) ورائحة الجثث الافرنجية والجلالقية والقوطية • فتختلط الروائح الفاترة ، المقززة ، القارصة ، بعضها ببعض•وأي علاقة لها هي (أمي) بهؤلاء المقاتلين الصرعى وهذه السباي المذبوحة والعزل المطعونين ؟ لا أجرأ على طرح السؤال ، فأتركه يبربر ويزعق غاضبا مغتاظا : ••• فهزمه اليه ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم وأثخن

(ما هي علاقة كلمة أثخن العربية وكلمة أثخناك البربرية ؟)

في أمم الكفر ، فانقرضت أمم القوط • وأجازت عساكر المسلمين

ما كان أمامها حتى احتلوا كل بسائطها وتوغلوا في بلاد الفرنجة

وعصف ريح الاسلام بأمم الكفر من كل جهة وارتحل طارق بعدها

الى الشرق بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على

العجل والظهر ، يقال كان من جملتها ثلاثون ألف فارس من

السبي • لا أتلفظ بالسؤال وأتركه هو يبربر ويزأر كالأسد

المصاب بالسهم ، فلا يعتم أن يقبض على الكتاب (كتاب الترجمة) ويضع نظاراته ويقرأ العنوان بصوت عال جهوري : طارق بن زياد في فتح الأندلس وحروبه ضد القوط والجلالقة والفرنج • ونزل بهم جبل الفتح فسمي به • نزل بهم جبل الفتح :

Il les fit débarquer au rocher de la victoire
qu'il baptisa de son propre nom فسمي جبل طارق به
Ils construisirent des remparts: وأداروا الأسوار على أنفسهم
et s'y enfermèrent يا حمار هذه الترجمة ليست حرفية
... فهل ... لا شك أنك عازم على أن تلعب فى مباراة كرة القدم ... لا لن تفلت مني اليوم تمعن يا حمار ... أكيد انك رايح تلعب الكرة ... أنت لا تعرف شيئا ... لا الرياضيات ولا العربية ولا الفرنسية ولا اللاتينية

IGITUR QUARTO DENIQUE DIE HAUD LONGE AB OPPIDO CIRTA UNDIQUE SIMUL SPECULA-TORES CITI SESE OSTENDUNT ; QUA SE HOSTIS ADESSE INTELLEGITUR. ITA IUGURTHA...

وأخيرا وبعد أربعة أيام كاملة

IGITUR QUARTO DENIQUE DIE :

HAUD LONGE فى مكان ليس بعيدا بكثير عن مدينة سيرتا AB OPPIDO CIRTA أنت لا تعرف فى الأمور الا كرة القدم الملعونة ، أما التاريخ وأما كيف كان الفتح ، (شوهد عدد كبير من الكشافة : SESE OSTENDUNT) أي فتح المسلمين للأندلس وكيف قاوم يوغرطة زرافات الروم ، فلا يهمك من هذه الأمور شيء . سبة والقات حدورة الطول والخسارة كسلوم النصارى . أتظنني أبله ومغفل ؟ أعلم أنك عضو فى فريق المولودية ، فى الـ M.O.C وأنك تتمرن ثلاث مرات فى الأسبوع ، وتلعب مباراة كل يوم أحد ، تحت اسم مستعار ... قيل لي زوبة 2 .... يأخذ فى الضحك . من أين لك هذا ؟ لو كنت فى مكانك لاخترت اسم قائد من عظماء الفاتحين المسلمين : مثلا طريف ... عن طريف بن مالك النخعي ، مثلا . طريف 2 . يغرق فى الضحك مرة أخرى أو جوبة 2 متهكما ، لاذعا ، ماكرا . يا للداهية ! أقول فى سريرتي : ألم يكفه أن تكون مدينة كاملة تحمل اسمه ،

طريف هذا ، ومنذ أكثر من ثلاطاش قرن . يا خي بابا ...
وصلولو الخبر القوادين ... اعلا بالو باللي نلعب الكرة .
ولاد قمر هما اللي راحوا خبروه ... طريفة مدينة اسبانيـة
لا زالت تحمل اسم طريف بن مالك النخعي ... وأيضا جبلطارق
جبرلتار GIBRALTAR تحمل الى يومنا هذا اسم طارق بن
زياد منذ أن فتحها . ألا يكفي ذلك ؟ وتريد أن أسمي نفسي
باسم طريف أو جوبة 2 الذي خان أهله وملته . التاريخ الاسلامي
والعربي والروماني والبربري . أفقدت وعيك يا رجـل ...
أتركني وشأني ... زوبة 2 . هكذا ألقب وهكذا سأستمـر
على هذا الاسم ... من قال له اني ألعب بكرة القدم ولاد الضرة
طبعا ولاد القمرة ... ويضحك هو ولا يكف عن الضحك هو
وعن الاستهتار هو . واذا به فجأة يخرج الخيزرانة ويغير من
موقفه ، فتخرج عيناه مثل تلك التي رأيتها على الصور الخاصة
بالفتح الاسلامي ، مثل أعين النساء الهاربات الهالعات . أتعترف ؟
قلت : لا . انها أكاذيب . لم تطأ رجلاي ملعبا ولا مرة يا رجل .
ويرفع الخيزرانة ويضرب . قلت فى نفسي : وليضرب ما طاب له ،
لن أقر ولن أعترف له بذلك قط ، وليشف غله ... لقد سئمت
من هواجسه السياسية ما لو والترجمة ؟ ليتركني وشأني . عارف
شكون وصل له الخبر . ! W.M.O.C. قلت اني متعود منذ
أيام الكتاب . يضرب على روح ... سوف يمل من ذلك أما أنا
فلن أعترف له أبدا ... أعرف من هو الواشي ... انه أحد
أبنائه من ذرية قمر زوجته الثالثة . قال ترجم ! ترجمت : (وارتحل
طارق بعدها الى الشرق بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال
على العجل والظهر ، يقال كان من جملتها ثلاثون ألف فارس
من السبي .) أعرف هذا المقطع عن ظهر قلبي وهو دائما ورائي .

أنا خير تلميذ فى القسم ••• ما عدا كمال • هذاك نابغــة •••
كل البنات من ورائه يسرن (والبحر من ورائكم •••) عينيه !
قتلو يا كمال ما هذه الربطة ، ألوانها صارخة ، أشكالها لافتة
•• •ما لك يا أخي •••• سوء الذوق • صحيح أنك الأول فى
اللاتينية والرياضيات ، ولكن ؟ ما هذا الذوق السخيف ؟ •••
أو تريد أن أدبج لك رسالة غرام لجاكلين ؟ ان لي أسلوبا رهيبا •
أفضل من أسلوبك ، على كل حال •• •لكن عدني يا صديقي
أنك تارك هذه الربطة ••• الزهاقة ، الزعاقة ، البراقة ، ما عليش
كله على وزن فعال ••• للمبالغة ، قال : معلم النحو ••• أتذكر
••• كان اسمه • ثم يقول كمال : أترك ربطتي هذه واعطينا رأيك
فى الحذاء • مصنوع فى ايطاليا ، كله جلد على جلد ومخيط
باليد • حذار يا بني لا تغرنك نفسك • أنت كالعادة تغار مني
(وكتب طارق الى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم ، فحركته
الغيرة) ، لا تحركنك الغيرة ! لا تحركنك الغيرة يا بني •••
عاقبة الغيرة وخيمة • أنظر الى ما آلت اليه هذه الغيرة بموسى
بن نصير ••• يقال ان الوليد بن عبد الملك أهانه ومات صاحبنا
فى ظروف جد غامضة ••• أراهنك كيف تترجم هذه الجملــة
لسلوسته عن حروب يوغورطة الشاوي متاعنا Ita iugurtham
spes frustrata ? كيف ؟ ••• لكن حذائي وأنا لا تتبهنس
(حــدد ابــن منظــور هــذا الفعــل ، قـــال : تبهنــس ،
تبهنسا : تبختر وتشامخ • حاول تغيير منظره ومظهره •••)
علي ••• ولا تخرط ••• أصفر وأسود ••• حذاؤك رديء
أيضا • شبكوني • سوء الذوق يا كمال • كيف تحل هــذه
المعادلة ؟ $X^3 + 3X^2 - 3X - 1 = 0$ بسرعــة
البرق ، يا بني ، بدون قرطاس ، بمخك العظيم ، يا بني •••

وهو : أراهنك . تمهل عشر دقائق . أنظر أنا عقرب ساعتي المعدد للدقائق . أبدا في العد . يقول هو نظرا الى أن 1 − × هو الحل البديهي ، يمكننا وضع المعادلة على هذا الشكل :
$0 = 1 - 3 - {}^{2}(1) 3 + {}^{3}(1)$ ... وينسى كمال نفسه فيغوص في معادلته ، هو الذي كثيرا ما أوقف الأستاذ عند حده ، فقد كان يعرض علينا حلولا أسرع وأنجع من تلك التي يقدمها لنا المدرس ... فيغضب هذا الأخير ، أول الأمر ، لكنه سرعان ما يستعيد اتزانه فيقول ، مبتهجا ، معجبا : لله درك ، يا ولد . لله درك عبقريا . فتمتلىء عينا كمال البنفسجيتان دموعا وتكتسي سحنته كآبة لم أكن لأفهم معناها . قال أبي : اعترف . أقر . قلت : لا أبدا . لم تطأ رجلاي ملعبا قط ... فضرب ضربا مبرحا . حسبك الجلد والعظم واللحم والشحم والدم ، يا أبتاه !

صفراء مثل تلك الخيول التي تظهر على غرار طارق بن زياد ومجموعة القواد وهم واقفون أمام سهل شريش . المجموعة العسكرية لا تتجاوز العشرة أنفار ، بمن فيهم طريف بن مالك النخعي . أما بقية الأحصنة فقد كانت عنابية اللون ، أو بنية أو صفراء . كان عددها عشرة وهي مصطفة كلها على حظ واحد ، باستثناء فرس أحد قارعي الطبول . بدت وراء المجموعة خمس رايات : أولا : راية رمادية النسيج وقد طرز عليها بحروف مغربية بيضاء هذه الكلمات : قل هو الله أحد . أما الكلمات الأخرى ، وهي : الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفؤ أحد . فقد كانت مخفية ، وذلك لوجود رأس أحد الجنود بين الراية والرسام . ثانيا : راية حمراء تحمل على مستويين اثنين ، أي المستوى العلوي والمستوى السفلي كلمتي : الله أكبر . كانت كلمة (الله) مكتوبة وسط المربع الأول . أما كلمة (أكبر) فقد

كانت منقوشة تحتها ، فى مربع يماثل الأول • ثالثا : راية شهباء تحمل عدة كلمات مكتوبه • (مطرزة) بالأبيض ، لذا استحالت قراءتها وذلك لتشابه الألوان او ، بالاحرى ، اللونين : الابيض والاشهب • ولكن يمكن من اراد التمعن أن يستنتج كلمه (الله) ، بعد جهود كبيرة ، وذلك فى المربع الثالث من الرقعه القماشيه ، على شمال الصورة • رابعا : رايه منسوجة من كتان قاتم السواد وقد بانت عليها هذه الكلمات : لا اله الا الله • أما بقية الجملة فتبقى مطموسة وذلك بسبب ذراع أحد ضاربي الطبول الأيمن • خامسا : هناك أيضا راية عنابيه تحمل هـذه الكلمات :لا أله الا الله محمد • فقد كانت أيضا بقية الجملة مغطاة برأس أحد الجنود (ولعله طريف بن مالك النخعي •) الذين سبق التحدث عنهم • وما نلاحظه أن كل راية من هذه الرايات كانت تعلوها شرابة قطنية ، مخروطية الشكل ، وردية اللون • مأا عدد هذه الشرابات فهي عشرة • اذن : 5×2=10 • وتلعب هذه الشرابات دور المسامير ، أي أ نها تشد القماش على الاطار الذي يتكون منه العلم ، أو اللافتة ، أو الراية • والتحديد فى هذه المسألة يبقى متروكا لنفاذ بصر الناظر ومهارته • وزيادة على هذه الأعلام الخمسة ، تظهر ثلاث رايات مرفوعة كل واحدة منها من قبل أحد الجنود ، وكأن مثل هذه المسؤولية (حمل الراية) قد جعلت على عاتقه ، بعد أن يكون قد أدى اليمين • وهي عبارة عن مجموعة من المربعات والمستطيلات والمثلثات والدوائر المطلية بألوان لا تفتأ تتكرر الى ما لا نهاية • ويمكن تصنيف هذه الألوان حسب ثلاث درجات من النوع الفاتر ، وهي كالتالي : الخزامى ، والوردي والأصفر الباهت • أما الشرابات التي تشدها فقد كانت ليمونية اللون • ويظهر الى شمال المنمنمة وفى أقصى طرف الصورة بيرق مستطيل الشكل ،

محور العرض ، يحمله أحد الضباط الذي راح يقبض على عصاه بعنف ، وكأنه يخشى أن تنفلت منه ، أو كأنه يرزح تحت ثقلها فيخاف من أن تسقط على الأرض • وكان هذا البيرق يحوي هامشين مطليين بلون مذهب ، قد زين بسجائف مختلفة الألوان والأشكال ، صوفية المادة وحريرية الحروف المطرزة عليها • على أنه يصعب قراءة الكتابة • بل يستحيل ذلك لرداءة المنمنمة نفسها ، على مستوى الجهة الفوقية على يمين الاطار العام للرسم • ويمكن افتراض عدة افتراضات فى هذا الموضوع : منهـا أن استحالة قراءة النص المطرز تعتبر طبيعية ، فهذه النقوش انما هي مجرد اشارات ذات دلالة طلسمية لها خلفيات دينية وفلسفية ، أو دلالات سفرية لها معانيها العسكرية لا يمكن أحد فهمها ما عدا أنصار المسلمين فحسب ، فتولد هذه الاشارات اللامفهومة ذعرا عند الأعداء القوط والجلالقة ، والفرنجة ، فتجعلهم فى دواخ ودوار وتوقفهم هذه الطلاسم عند حدهم ، فيغتنم المسلمون اذاك فرصة الحيرة هذه ، فينقضون عليهم ويغلبونهم ويستولون على ما لهم من ذخيرة وعدة وعد (وان كان قد تجاوز هذا الأربعين ألفا ، على حد قول ابن خلدون •) فتكون الافتراضات بالتالي أمورا لا تحصى ولا تعد ، نظرا لما فى أمر الحروب من أهمية ، تجعل من كل تفصيل ومن كل جزئية ومن كل شكلية شيئا له أهميته الكبرى ، خاصة وأنه من البديهي احتمال وجود الكثير من الأفخاخ والحيل والخدعات الحربية فى مثل هذه الظروف الدقيقــة •

ولكن أيمكن زيارة مدينة أجنبية لمجرد كونها قد كانت فى يوم من الأيام ، منطلقا لفتح بلاد الأندلس على طريف بن مالك النخعي وطارق بن زياد وموسى بن نصير ؟ لم يتردد طارق فى الاجابة

بصورة ايجابية • كنا آنذاك نجوب منطقة جبلطارق باحثين عن أدنى أثر يرمز الى الفتح الاسلامي ، وعبثا حاولنا • وبعد أسبوع من المحاولات وصلنا على متن سيارة كان قد استأجرها طارق الى مكان نائي قيل لنا انه يحتوي على بقايا بركة عربية كان قد بناها طارق بن زياد نفسه ، حسبما أخبرنا اياه أحد ندل الفندق الذي نزلنا فيه عند وصولنا الى جبلطارق ، وقد كان عربي الأصل • مررنا بمقهى صغير يحتوي على طاولتين ، واحدة داخله وأخرى خارجه • ولم نر أحدا فى الخارج لكثرة ما كان الحر شديدا والقيظ هائلا • ألقيت نظرة الى الداخل حيث كان قد تجمهر حول الطاولة الفريدة جمع من لاعبي الورق • كان البعض عاري الصدر والبعض الآخر يرتدي ألبسة خفيفة • قلت لصاحب المقهى الذي كان واقفا وراء المسطبة فيما اذا كان يعرف أين البركة العربية ، فأجاب ملوحا بيديه أنه لا يفهم ما أقول • التفت نحو طارق وقد مكث فى السيارة التي فتحت أبوابها الأربعة طلبا لنسمة من الهواء : الظاهر أنهم لا يفقهون الانجليزية فى هذه المنطقة • قال : وماذا يفقهون ؟ هل أنت آت ؟ لن نستطيع الحصول على شيء من أولئك الموبوئين • ركبت السيارة • أغلق طارق الابواب الثلاثة فيما اكتفيت باغلاق الباب الى جانبي • قلت : هذه جهنم الحمراء فتحت أبوابها • لم أر قط قيظا مثل هذا حتى ولا فى الصحراء ••• تحركت السيارة بقيادة صديقي • وراح العرق يتصبب على جسمي • ظهرت دجاجة مرقطة العنق وكأنها خرجت من العدم وكادت السيارة أن تدهسها • لكنها تفادت الكارثة وانطلقت فى طريقها ، رافعة من ورائها كومة من الغبار المستصفر • قلت : لو قتلناها لخرج الفلاحون من أي مكان • قال طارق : من أين تريد أن يخرجوا ؟ •• انها القفار بعينها • لم أرد عليه بكلمة • شعرت بأن اليأس قد بدأ يدب

فيه وأن التعب نال منه • فهمت أن أعصابه أصبحت متوترة •
انعطفت السيارة الى اليمين • مررنا ببستان صغير مزروع حنطة •
فاهتزت السيارة لرداءة المسلك الريفي الذي سلكنا فيه ، فأشعل
طارق سيجارة وأهداني واحدة • قلت : أرجوك • الرجاء عدم
تقديم السجاير الي • لقد عزمت على التوقف عن التدخين •
قال طارق متهكما : سمعا وطاعة • لبيك يا بيك • قلت :
معك الحق ، لو لم أصاحبك الى هذه الربوع الخالية
لما تهكمت علي بلهجة المسلسلات المصرية الرديئة !
أيا لك من أناني ••• تتهكم عمدا ، عن قصد • أنت لا تريدني
أن أتوقف عن التدخين ، وما ذلك الا لأنك تفتقر الى
شيء من العزيمة ، وبدونها لا يمكنك مواجهة الامتحان •
ضحك طارق • قال : صراحة • كأننا زوجان ••• نتنافر ونتشاجر
ضحكت أنا بدوري • قلت : صحيح • لقد غلبني التعب •••
واني لمنهوك القوى • أما الطريق فقد كانت كلها حفرا وحواجز
وحجارة • واذا الحرارة تتزايد • مرت السيارة أمام منزل ريفي
منعزل ، غريب الشكل ، فريد من نوعه • خرجت طفلة لا تتجاوز
التاسعة من العمر • أوقف طارق السيارة • أشار اليها من بعيد •
ركضت الطفلة نحونا • ثم توقفت على بضعة أمتار ، حذرة •
أشار اليها طارق من جديد • فلم تتحرك • ظهرت على عتبة
الكوخ امرأة • نادت الطفلة بلهجة ليست اسبانية ولا انجليزية •
قال طارق بانفعال : SUCH A SHEET COUNTRY قلت : وهكذا
أصبحت عنصريا • هذه المرأة لعلها من أصل عربي ، ولعل سلفها
ما هو الا طارق بن زياد نفسه • لم يرد طارق على مداعبتي •
وانطلقت السيارة من جديد • قلت : في أي شهر وصل طارق
الى هذا الفردوس الأمين ؟ قال : يوم الاثنين الخامس من رجب
سنة اثنتين وتسعين ، الموافق لسابع والعشرين من أفريل سبعميا

وحداش • قلت : ان هذا من حسن حظه • فلو جاء مثلنا فى عز شهر أوت وأوجه لا نهزم لا محالة وقفل راجعا • قال : والله صحيح ، معاك الحق •• •هذه جهنم تحلو بيانها •

ايها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم • وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، واعلموا انكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام ••• وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجراة عليكم ••• واني لم احذركم امرا انا عنه بنجوة . ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها للنفوس ، أبدأ بنفسي ، واعلموا طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فما حظكم فيه بأوفر من حظي ••• وان قتلت فلا تهنوا ولا تخونوا ولا تنازعوا ، فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين أسير وقتيل • واياكم أن ترضوا بالدنية ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلة ••• وهاءنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتي ••• (ويشير صاحب كتاب تحفة الانفس الى خطبة طارق فى قوله : « لما التقى العرب والقوط فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام يعظهم على الصبر ويرغبهم فى الشهادة ، ويبسط فى آمالهم ثم يورد نص الخطبة •») يقول الأستاذ ابن عاشور (« اذن لعل الخطبة ألقيت ليس قبل الهجوم الأول ، بل ثلاثة أيام بعده ؛ وقد كانت الحرب فى أشدها • انها افتراضة أخرى ، يا أولاد • ويستمر قائلا : تنوه هذه الرواية الاسلامية الى ما كان لهذا الخطاب من أثر فعال فى اذكاء هم

المسلين وشجاعتهم وثقتهم فى النصر والفتح ، ودفعهم الى طريق الظفر والذخر . لكن الرجل كان حديث الاسلام والعروبة ، يا أولاد ! أتفهمون ؟ ان طارق بربري وهو أمر لا تشوبه شائبة . كان زناتيا ، ابن لغوبن ورفحوم بن نير غاس بن ولهاس بن يطموث بن نفزا الزناتي . أفهمتم يا صبيان ، أ أدركتم أي معضلة تطرحها على المؤرخ خطبة طارق بن زياد ، أو على الأصح الخطبة المنسوبة اليه ؟) فتنفض الصاعقة علينا وتقوم القيامة وهنـاك الطامـة الكبرى . نحس كأن أستاذنا خدعنا . ففكر البعض بتقديـم شكوى الى المقاومة فتقضي عليه بعد أن تحكم عليه بالاعدام . سرق أبي الكراس الذي دونت فيه الدروس ، مسجلا التباسات التاريخ هذه . كيف يضع الرجل خطبة كهذه وهو حديث العهد فى العربية ؟ وهل ألقى الخطبة قبل بداية الفتح أو بعده بثلاثة أيام ؟ وهل أحرق حقا سفنه ؟ وهل كان له سفن ؟ لقد اختلط الحابل بالنابل . قال كمال : لقد نفث فينا الشك هذا الشاوي . ثخناك ! ابتل بؤبؤ عينيه البنفسجيتين . قلت : أتراهن ؟ سأجد حلا لتلك المعادلة بأسرع منك !

$x^3 + 3x - 3x - 1 = 0$
$(1)^3 + 3(1)^2 - 3 - 1 = 0$
$P(x) = x^3 + 3x^2 - 3x - 1$
$(x - 1)$
$x^3 + 3x^2 - 3x - 1 \quad . \quad x - 1$
$4x^2 - 3x - 1 \quad . \quad x - 1$
$(x - 1)(x^2 + 4x + 1) = 0 = x^2 + 4x + 1 = 0$

$x = 1$

$x = 1$
$x = -2 - 3$
$x = -2 + 3$

متى سيحاكم الأستاذ عاشور بتهمة الخيانة العظمى ؟ واذا الشعارات المعادية لأستاذ التاريخ تغطي جدران المدرسة • وانقسم التلاميذ الى فئتين متناوئتين : الانصار والأخصام • وظهر على جدار القسم شعار كان يعلو السبورة : التاريخ جدلية مستمرة لا قنوط مسقوط • عاش طارق بن زياد الليثي الزناتي • كتب كمال

Abat la France قال أستاذ اللاتينية ! Pueri cavete canem

(احذروا الكلاب يا صبيان !) ، مشيرا الى الوشاة وأعوان الشرطة المتسربين داخل الثانوية • لكنه لم يقنعنا نظرا لما كان عليه من أفكار انسانية ونزعات سلمية فى يوم راحت الحرب تستعر وتشتد أوزارها • حرفنا مقولته المشهورة التي كثيرا ما ترجمناها :

Laudate pueri nulla in mundo Pax sincera in furore

شطبنا كلمة PAX (سلم)فعوضناها بكلمة BELLUM (حرب) ، فجاءت الجملة المبتدعة كالتالي :

Laudate pueri nullum in mundo bellum sincerum suie furorem.

(ابتهجوا يا أطفال ليس هناك أبدا حرب نزيهة دون غضب وصخب وتمرد) وعند غروب الشمس كانت العصافير تتجمع على أربع أو ثلاث أشجار فى البستان العائلي الذي تتوسطه التوتة فتغطي بكثافة حجمها كل الأحجام الأخرى المتواجدة فى هذا المكان وقد برزت من خلال تلك الطبقات الهوائية التي ما كانت بعد قد فقدت ضياءها ، فتضفي على الأشياء والكائنات طابعا مخيفا ، مهولا ، مأتميا ، كئيبا ، فتأخذ من الأشباح المتربعة ، المتحدية ، المغيرة ، مظهرها المروع • واذاك أشعر وكأن الألوان راحت تنقلب متعاكسة ، فيغزوني انطباع غريب مفاده أن مستطيل النافذة يتجزأ الى قسمين : مساحة كرزية اللون (التهاب الجفنين عند الأصل الملتهب) ومساحة زيتونية الفارق (غضارة التوتة) •

واذا بي أستمع الى أصواتها الخافتة فى أول الأمر ، فلا تلبث
أن تتقوى تدريجيا على الرغم من أن الجو لم يكن قد تغير تغييرا
جذريا وان كنت أحدس ، لا سيما وان النعاس قد راح يتسرب
الى خلايا الرأس ، أنه قد طرأ شيء من التغيير ، وان كان الجو
هو هو لم يتغير : أي أنه كان ، وذلك بطريقة شبه آلية ، بين
غسق وشفق • ثم : تبدأ العصافير ترد رويدا رويدا بعضها على
بعض بزقزقتها الهافتة ذات نبرة شبه مترددة ، متلعثمة ، مترطنة •
هذا فى باديء الأمر ، ثم لا تلبث أن تنجزأ شيئا فشيئا ، فيتصاعد
نشيدها من أعماق أشجار الروضة عامة ومن عمق التوتة نفسها ،
خاصة : تلك التي ما زالت أغصانها تخدش زجاج النافـذة ،
فيتصاعد اذذاك تناغم لطيف يليه تجواق يزداد حدة ، تسيطر عليه
بعض الارتجالية فتأتي الوتيرة نشازة الى متباينة ، غير متناسقة •
ثم هذا أيضا : ان الوضع الفضائي والوتري راح يتغير بسرعـة
فائقة ، بسرعة عجيبة وغير منتظرة : فيصطبغ الأفق من جهة بخط
وردي تحف حواشيه صفرة باهتة ، ويأخذ التناغم من جهة أخرى
حدة تصدع لها الآذان • فكأني بالعالم الرث ، المتردد فى مسيرته
الطويلة ، العويصة ، المتداومة منذ العصور الغابرة ، ينطلق من
جديد ، وذلك عن طريق وتيرة يلجأ فى أدائها الى آلات مصدأة ،
قديمة ، بالية • حتى اذا رفعت رأسي ، وقد توغل الغروب فى
أحشاء البستان ، رأيت موكبا من العصافير الواقفة على الزاوية
الشرقية من سقف المنزل ، فتبرز (الطيور)من خلال العتمـة
المتنامية ، الهابطة من السماء والتي لم يتجل بعد لونها النيلـي
العادي ، فتبقى محتفظة بلونها الشاحب ، الباهت ، المتدفق من
تحت طبقات السحب المتراكمة على الأفق البعيد • فتأتي هذه
الألوان السمذجة ، متناقضة مع مئات الرياش الرمادية ، المبرقعة

والملطخة بألوان الوريقات الخضراء المنبثقة من عمق التوتة التي أصبحت الآن تغطي بكثافتها سقف المنزل كله وقطعة لا يستهان بها من سقوف المنازل المجاورة ، كذلك . فضلا عن مساحة معتبرة من السماء نفسها . أما هذه الوريقات فبالرغم من عدم حركتها فانها تتمكن من شق العتمة المحيطة بالأشياء والكائنات ، خاصة وان غبش الغروب ما زالت عملية انتشاره تتباطأ ، قبل أن تغطي المحيط كله فلا تعتم أن تخترق النافذة ، فالزجاج . فالحجرة بأسرها . ويتشبع الجو الداخلي من كل هذه المادة الجديدة فتلف كل ما فيه من أثاث وأشكال شتى . على أن هذا النوع من الضوء وان كان يجبرني على اشعال المصباح الكهربائي فانه يبقى محتويا لا محالة ، على قليل من طبقات النهار المنتهي ، والتي كانت تصبغ ، بلونها اللامع الكيان الكوني برمته ، عاملة في ذلك طيلة النهارات الصيفية الطويلة ذات الامتداد والدوام اللامتناهي . وكأنني وأنا أراعي كل هذه التفاصيل المتبادرة الي عن طريق الانطباعات والصور الذهنية ، كأني بها اذن تسيل (الرواسب المادية لتبقيات النهار) وتتقاطر وتنسطر ببطء وتؤدة ، حتى لا تزعج هذه المواكب المتكاثرة من الطيور القاطنة فيها أو المصطفة على طول السقف كله فتجبرها اما على الانطلاق نحو ملاجيء أخرى ، واما على الاختفاء داخل التوتة الضخمة . مما يجعل ريشها دون اللون الرمادي المعتاد ، وقد وقفت الآن كلها على قوائمها الرقيقة ، فراحت تدب من حين الى آخر ، في أجسامها الرهيفة ، المنتفشة ، قشعريرة براقة لا تكاد العين تبصرها لشدة سرعتها وهي تصادف كل صيحة وطيحة ، انسجاما مع هذه الوتيرة المتقطعة ، المتكسرة ، المتهلهلة والتي راحت تتناغم وتتضاخم شيئا فشيئا الى حد الفوضى التي لا مثيل لها . واذا بأعينها تظهر على صغرها جلية ، واضحة ،

براقة ــ ومناقرها ــ هي أيضا ــ تبرز بوضوح وجلاء ، رغم العتمة المتصاعدة ، فتأخذ صبغة ليمونية ــ وردية . فتذهب الفراخ تتضخم وأجسامها تتنفس ، فتجعدها بمناقيرها وكأنها تطلي ريشها الذي برز نهائيا وقد طغى على رمادية لونه ، نوع من الفارق هو عبارة عن مزيج من الأزرق والخزامي ، مما زاد فى تبخترتها وتبهنسها وتثاقلها وتغنجها . وقد أصبحت على أهبة الاستعداد للانطلاق فى متاهات النعاس داخل أوكارها ، بعد أن قامت بعملية الافتتان هذه ، فتجعد ريشها وتعيد الكرة فتنهمك فى تسريح زغب أفراخها فيما الذكور تبقى على حافة السقف وكأنها تبذل قصارى جهدها لتحدي قوانين الجاذبية الأرضية ، حيث تروح تمشي الهوينا فى عملية اغتزال وتغزل ودلال ، مما يزيد فى بريق أعينها الصغيرة ، الكحيلة ، المشتعلة ، الملتهبة ، البراقة .

كان ، له القرار ، يقول هذا الكلام حين لمح المؤدب يدنو وينفخ فى سماق اللوح ويفرش له الحصير ، يصوغ كميه من رنين الحرف . كانت الحرب . أين طفولته ؟ أين اختبأت ؟ وكيف يقص عن غسق يصاحبه الى باب الكتاب . دخل الجامع السفلي ، عند الصحن . كان الضوء منحدرا وجلبابه يلف الركبتين . لمحه يختار له قصبا . يقول أكتب . كتب فى أول الأمر الكثير من السورات والصور . كتب الحروف والجروح والأموات والمذبوحين والعناوين الصحافية والكلمات المنقوشة على الجدران وحتى على سطح الدار W.M.O.C. W.F.L.N. يقول أكتب . كتب شعارا ثم انصرف . لم يذكر حنين أصابعه الملوثة بالطباشير الصفراء صفرة الرافعة المغروسة الرجل فى أعماق الأرض والماسح ذراعها آفاق السماء فيما هو جالس فى حجرة الفحص التابعة لعيادة عمال البناء ، فتبرز له كلمة POTAIN ولعله اسم مخترع الآلة أو

صانعها • يتذكر السنين الماضية • تدخل الممرضة العجوز فلا يرد عليها ويبقى منهمكا فى فحص أحد العمال المصاب فى رئتيه • ألم يتذكر رعشة الأصابع المطلية بمسحوق الطباشير الصفراء ؟ يحاول ازالتها بمسح يديه على قماش بزته المدرسية ، أو أيـه خرقة من الخرق • يدخل التاريخ بين طيات جسمه السمين الربيل الحادر • ألم يذكر معشر الزملاء وهم يرشقونه بوابل مـن السخريات ، متهكمين ، هاتفين ؟ ياسسينة بابا عجينة وكال الطمينة يا بوطي (BUD ABBOT يا وطوطي . محرفين اسم هذا الممثل الامريكي المشهور بسمنته • أنسي أيضا يوم ذهب الى الملعب لمشاهدة احدى المباريات ؟ فصاح فيه أحد العساكر الفرنسيين : اشكارة بطاطا Quel gros sac de Patates ! وكان ذلك فى الشهر الأول من اندلاع الثورة الوطنية • وهو آخر أحد من نوفمبر 1954 • كلا لم ينس ذلك • تفاقم كرهه وتفاقمت كراهيته لهم • لم ينس أبدا حنين أصابعه المغشاة بالطباشير الصفراء وتلك المتعة المتأتية من الخوف ومن سراديب الخوف • يقول المؤدب أكتب ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهون من حيث أمركم الله • يقول : (أين أمي ؟ أمي طاهرة • أمي عفيفـة • انتسبت طفولتي لمحنتها أنا المتعصى من عتبات الأبوة • قال أبي أو تظنني مغفل ؟ اعترف أنك تلعب بكـرة القـدم فى فريـق المولودية • قلت لا وفى سريرة نفسي تلفظت • قلت لا أبدا • رفع خيزرانته • ضرب ضربا مبرحا • صحت VV.F.I..N.VV.M.O.C • أنا عارف بمن أتاه بالخبر ••• ولكم كثر الوشـاة • أبناء ضرة أمي • أولاد قمر ••• لكنني لن أعترف لـه بـأي شيء حتى

أدناه ، والا لهلكني • اختلس كراس التاريخ وما دونته فيه من أقوال الأستاذ ابن عاشور حول الغموض الذي يكتنف شخصية طارق بن زياد والالتباس حول خطبته وأحداث واقعة خليج الزقاق • هلا أقررت ؟ قلت : لا • لو فعلت لندمت على ذلك طول حياتي • رفع عصاه • هكذا فعل شيخ الكتاب • اتسبت طفولتي الى محنتها • لقد كنت مقصى من عتبات الأبوة • صمت • ان أمي طاهرة •• خرجت أمي يوما فى احدى المظاهرات ضد الحكام الأجانب • كانت الحرب • تفور ضفاف الرمال بالرؤوس التي قطعت غدرة أيام صالح باي الذي اعتصم وراء أسوار المدينة • يقول أبي كم يوما دام هذا الاعتصام ؟ لا أدري • غصت المدينة ذاك النهار بالمتظاهرات • وما أزال أذكرها فى متم الكهولة وتوالي الشهور • كم جندا اصطحبوا طارق الى خليج الزقاق ؟ قلت : نحو ثلاثمائة من العرب وانتهب معهم من البربر زهاء عشرة آلاف • لا أزال أذكر المنمنمة • كما أذكر أيضا زعاق الجندي الفرنسي وهو يراني محصورا فى سمنتي : اشكارة بطاطا ! كيس من البطاطا ! كم كان عدد الجند الذين اصطحبوا رذريق ؟ قلت : زهاء أربعين ألفا على حد قول ابن خلدون وقرابة المائة ألف حسب رواية البلاذري • قال : أين الحقيقة يا ترى ؟ قلت : فى المعدل • صفعني • قال : يا أبله • أو تظنني أحمق الى هذا الحد ؟كل المدينة على علم بأنك تلعب فى فريق كرة القدم وتلبس القميص رقم 5 ••• أتعترف ؟ قلت مداهنا : معك الحق أبتاه •رواية البلاذري أصح من رواية ابن خلدون • انشرح صدره • نسي قصة فريق كرة القدم ومشاركتي فيه سرا • قلت الى اشعار لاحق • قال ترجم هذا النص للبلاذري • لا يمكن أبي الصمود أمام عملية الترجمة مهما كانت اللغة ، حتى اللاتينية منها • كان يتقن اللاتينية • لقد انتقلت فى دمائه قرون كاملة وهو

يترجم فقرة صغيرة لسالوستة حول حرب يوغرطة • رأى الغزاة يطوفون حول سيرتا • نهض يوغرطة يقاوم جحافل الروم ونهض طارق الزناتي الملثم يحارب أربعين (أو مائة) ألف جندي قوطي • رأيت المدينة حيث كان كمال ينصب الكمائن لجاكلين زوجة القبطان • كان القبطان غائبا آنذاك ، لأنه كان يحارب في فييتنام • رأيت المدينة والنساء قد ملأنها بملاياتهن • خرجن عن غير عادتهن • (الحيض = العادة الشهرية) وقد حاصرها (المدينة) عشرون ألف جندي في عهد مقاومة صالح باي ولم تسقط الا عام 1856 • انتقلت في دمائه (أبي) قرونا رأى الغزاة يطوفون حول الجزيرة الخضراء • قيل أنهم عرب وبربر • رأى غزاة آخرين يحومون حول الجزائر • ولم أفهم من التباسات التاريخ ومحنه الا القليل • أربعون ألف جندي قاموا لمقاومة طارق وأصحابه • كانوا يدافعون عن أنفسهم ، قال الأستاذ بن عاشور ما الذي دفع بطارق الى المجيء الى خليج الزقاق ؟ غصت المدينة بالنساء يفصلن حدود المساء بملاياتهن السوداء ، كأجنحة الغربان المنقضة من السماء • انتشرت في البلاد صلاة الجنازة • ثم صلاة الغائب • جاءوا بصندوق مشمع • زعموا أن أخي كان فيه مسبولا ، ميتا • لعل بائع الاسفنج التونسي قد بكى زيته المغلي وهو يهدر هباء على رؤوس القتلى • رأيت طفلا يلعب على أحد السطوح بقفص مليء طيورا من نوع الكناريا الصفراء صفرة الطباشير • كتبت شعاراتي الأولى على سطح الدار وأنا أبدأ عراكا طويلا مع جسمي المتشحم ، المتفايض يمنة ويسرة ، متقدمة ومؤخرة • أصبت بالحشورة • قالوا : بابا عجينة وكال الطمينة يا بوطي • اخترع الأولاد هذه الكلمة استنادا الى اسم ممثل هزلي كان سمينا • من BUD ABBOT اخترعوا كلمة بوطي • يا بوطي ! يا طوطي ! دخلت في أوائل

الحرب الملعب البلدي لمشاهدة مقابلة محليه • قام احد الجنود الفرنسيين يسخر مني • قال : يا له من كيس بطاطس ! Un vrai sac de patates ! دخلت فى عراك طويل مع جسمي ومع نفسي ومع أبي ومع الأجانب ومع العم حسين ومع شيخ الكتاب ومع كل أفراد العائلة • استثنيت أمي وشمس الدين • دامت الحرب بيني وبين جسمي مدى المراهقة حتى انتهائها • هل كانت السمنة ردة فعل لبداية الحرب ؟ أم ردة فعل لأمي يوم صفعتني بدون مبرر وقدماي تدميان دما بريئا • كان طفل صغير يلعب على سطح دار عربية يوم خرجت النسوة وفصلن حدود الصباح بالملايات وعنف الشعارات • تقاطر ماء الكناريا الأصفر بعد أن أشار المروض الى فرقة العصافير المطواعة • استجابت الفراخ فى آن واحد • غردت ، فتبولت على رؤوس العساكر؛ فشهر هؤلاء حرابهم وقطعوا كل ما كانوا يصادفونه أمامهم • وقد فقدوا مع صبرهم روح الفكاهة • قطعوا كل شيء بما فيه قفف الخضر وصناديق البيض وقفص الكناريا وجعجعة الترامواي الكهربائي وماعون زيت التونسي المغلي ورأس الطفل مروض طيور الكناريا أيضا ففصلوا رأسه عن جسمه . فتطاير الدم أمتارا الى فوق • ولم يعثر على الرأس الا هناك بعيدا عن مكان الواقعة • سمعت مواقعهم • سمعتها تتمازج ، تتناسج • رأيت ذراعا مقطوعا . مكتوب عليه هذا الوشم : VIVE MOI ! خر جسمي على ركبتي السمينتين • رتقت سرائر وجهي • كانت صلاة الجنازة وصلاة الغائب تتليان فى آن واحد • كان أخي غائبا • وبعد أشهر من هذه الحادثة المفجعة ، المهولة رجع فى تابوت مشمع مرصوص • رفضت السلطات العسكرية أن يفتح التابوت • لم ولن أنسى غرابة طابع الجمرك الأحمر • وفى قرارة نفسي

تساءلت عما اذا كان الصندوق يحتوي على بضاعة ؟ قال أبي وهو صاحب القرار الأخير والطابع الكبير والمخازن الكثيرة : انه أخوك . انتجعت القرون فجبت أمصارها فأخذت منها ما تبقى من صور قديمة وجلت فى صور ذهنية راحت تتجدد باستمرار . كانت سلاميات أصابعي العشرة المزرورقة لفرط ما كان البرد شديدا ، تحمل آثار الجريمة التي اقترفناها أنا وابن عمي ضد السلطة الأجنبية ! Algérie libre كتبتها شعارات بلغة العدو نفسه . وكتب شمس الدين شعارا آخر ! Abat la France وقامت المشاجرة فيما بيننا حول الاملاء وصحة ما كتب . اضطررنا الى اللجوء الى القاموس فبكى شمس الدين استياء بكى لخسرانه الرهان . ودفع الثمن : مثلوجة عامرة وخزر فى : خزر هي أيضا عربية . قال ابن منظور فى هذا الصدد : خزر ، يخزر ، خزرا : نظر بمؤخرة عينيه وتداهى . وخزر الرجل : هرب . انه نفس المعنى فى الدارجة . ما عدا نقلة طفيفة فى المفهوم . فالتهمتها التهاما . البدانة . كنت بدينا . سعاريا . ضوريا . حشورا . اغتاظ ابن عمي ازاء بخلي . قال أعطني لحسة . قلت : لا ، أبدا ، أنت خسرت المراهنة . قال : يا بوطي يا سمينة وكال الكريسة . صفعته . كان يصغرني أربع سنوات . رد الصفعة صفعتين . وسقطت المثلوجة . صعدت الى السطح فمحوت كلمة Abat la France وعوضتها بالعبارة الصحيحة Abas فراح شمس الدين ساخرا : كل هذا الاحترام الذي تبديه نحو لغة العدو ان هو دل على شيء فعلي أنك متواطىء معه . قلت : يا للأبله . أنت لا تفقه الاملاء لا الفرنسية ولا العربية ... أنت تغار مني وتحار كيف تتصرف كلما خسرت رهانا . على أننا ما لبثنا أن تصالحنا ودفعت أنا

ثمن المثلوجة الثانية التي قدمتها لشمس الدين فأكلها • قلت : أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم • ولم يفهم شمس الدين باب القصيد • قال : فلنسرع ونكتب شعارات أخرى ، قبل هبوط الليل • واذا به يـود اهدائي مثلوجة أخرى • قلت : لا ، انني صارم فى اتباع النظام الغذائي • فراح فى قهقهة عريضة • تفاعلت عدم فهم السبب • كانت الحرب الفحشاء • فانتسبت طفولتي لمحنتها وعقدها وغددها المتعطلة • كان صاحب الكلام يتلفظ ألفاظا سياسية • وصاحبني فى يوم من الأيام الى الكتاب السفلي • كان المؤدب ضربرا يـدعى الشيخ صالح • قال أبي : حاسبني بالجلد والعظم واللحم والدم • خشيت أن يقول وبالشحم أيضا • كنت سمينا • فأقصيت بالتالي من عتبات أترابي وأهلي • خدعني شمس الدين لأنني رفضت أن أعطيه جزءا من المثلوجة • كان حليفي الوحيد اللاشرطي • قال أبي كلاما ممسوحا بالأخلاق حين لمحت الشيخ الضرير فى قعر الكتاب وهو ينفخ فى سماق اللوح ويضعه فى قارورات بنفسجية ، مبعجة الشكل • كان المسكين خنوعا • فرش لي حصيرا جديدا • فرضت على نفسي نظاما غذائيا ، خوفا من عواقب الضور الوخيمة على سمعتي بين أتـرابي • لم أنس سخرية ابن عمي وحليفي فى السراء والضراء • رفض الدخول الى الكتاب منذ اليوم الذي فلقني فيه الشيخ الضرير • فأوسعـه أبوه ، أي عمي الحسين ، ضربا • لم يرضخ • غرت من عزيمته الصامدة وشجاعته الهائلة وجلده تحت الضرب • قال الشيخ الضرير الخنوع : أكتب • كتبت • حتى جاءني بهذه الآية قال : ويسألونك عن المحيض قل هو أذى • ثم تابع : ماذا تنتظر يا ولد ، أكتب • قلت : لا ، لن أكتب • قال : لا حرج فى الدين •

قلت : لا . قال هات الفلقة يا صبي . فجاء بها أحد الخونة من الأتراب المتخاذلين . ونهض آخر ورفع رجلي . وقف المؤدب وضرب وطغى وتغطرس مزهوا ، مفتخرا . تركته يفعل . وليقم بما يشاء ! ثم قفلت عائدا الى البيت وقدماي تنزان دما خاثرا لفرط ما كنت عليه من السمنة . بحثت عن أمي فأقول لها كم هي طاهرة بعكس ما قاله الشيخ الضرير . لم أكتب الآية تضامنا معها . كانت هناك فى مؤخر البستان تنشر خرقا خاصة بها ، تنشرها على حبل غسيل معزول ، منعزل ، مشدودة أطرافه بين أغصان الزيتونة القديمة ، العريقة والتي أبت أن تعطي ثمارا ، اذ أنها أهملت فلم تزبر ولم تلقح وذلك منذ أن مات جدي العامل فى شركة السكك الحديديــة . صفعتني أمي ، أمي الطاهرة ، بدون مبرر . فغرست فى نفسي عقدة صلبة . أذكر أنها كانت مرفوعة اليدين والذراعين ، مكشوفة الابطين . كانت بشرتها محلوقة . وعلى الرغم من ذلك فقد برزت خطوط فحمية اللون ، محبحبة الشكل . اختبأت متحاشيا الناس فتواريت عن الأنظار ، على السطح ، حيث كانت الشعارات . كان هناك طفل يلعب على احدى السطوح بقفص ملؤه العصـــافير على اختلاف أنواعها ، عصافير مغردة . كان يروضها فيعلمها الموسيقى والأناشيد الوطنية بحنكة بالغة . ظننته فى بداية الأمر معتوها . على أنني ما لبثت أن فهمت شيئا . فهمت أنه ماهر فى ترويض العصافير . علمني وعلمها النشيد . الثوري . واشترك الطفل فى مظاهرة النساء ، فقتله أحد الجنود . جاؤوا بالجثة الى منزله . رأيت من على السطح قوما غفيرا راحوا يصلون أمام الباب صلاة الجنازة . ومرت الأشهر فجاء الشيخ الضرير مصليـــا صلاة الغائب . طيلة أيام وأيام انتظرت وصول التابوت يحمل أخي .

رفضت مغادرة الميناء قبل وصول الجثة • صممت على زرع اللوعة الصامتة فى نفسي المكلومة • فرضت على جسمي نظاما غذائيا صارما اتقاء سخرية العساكر اذا ما شاهدوا سمنتي والحرب تزداد رحاها عنفا واتساعا كانت ضفاف واد الرمال تغور بالرؤوس التي قطعت غدرا سنة 1846 ولا أزال أنا أذكر تلك الأيام الهائلة من سنة 1956 وجثث الكناريا المبعثرة والقفص ذا الاجزاء المحطمة • واذاك فهمت • أن الموت ملتصق بنا بجميع الأحوال ، فانفلت الضوء وعج دود القز فى ومضات الجو • قال صاحب اللوح أكتب • كتبت ولم أتوقف عن الكتابة منذ ذلك العهد • وما رفضت كتابة شيء ما عدا الآية التي تمت الى المحيض بصلة • ومنذ ذلك اليوم ، انتسبت طفولتي الى محنتها وخضعت الى قوانين الغدد الدماعية والصلاخية منها والكظورية والدرقية ؛ كما انبهرت بسجلات المعارف واللغات Lauda pueri nulla in mundo pax sincera in furore laudate وكان البحث عن الفعل فى الجملة من أصعب ما فى الأمر فى اعراب النص اللاتيني • أدركت أيضا ما هناك من علاقة بين الجملة اللاتينية وبداية الحرب وكارثة المحيض (أو أذاه ؟) وصلاة الغائب على روح أخي واضطرابات الغدد على أنواعها • ذلك أن جسمي لم يعد يطيق كل هذه الصدمات •

(« فما كان مصير طارق بن زياد بعد رجوعه الى دمشق لتلبية أوامر الخليفة ؟ هذا ما تمر عليه الرواية الاسلامية بالصمت • وكل ما هناك أنها تشير الى ما كان من نية سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي فى تعيينه واليا للأندلس مكان موسى بن نصير وكيف عدل عن ذلك حينما وقف من مغيث الرومي فاتح قرطبة ، على ما كان يتمتع به طارق بن زياد فى

الأندلس من عظيم الهيبة والنفوذ . وذلك توجسا مما قد يجيش به من أطماع ومشاريع نحو ذلك القطر النائي من أقطار الخلافة . وقد كان مغيث يحقد على موسى بن نصير وعلى طارق بن زياد منذ الفتح ويسعى الى منافستهما والايقاع بهما . واذا كانت هذه الرواية لا تلقي ضوءا كافيا على مصير طارق ، فانها تسمح لنا مع ذلك بأن نعتقد أن طارقا لم يلق مثل المصير المحزن الذي لقيه موسى . وقد رأينا في الدرس السابق كيف أن هذا الفاتح العظيم قد أهانه سليمان بن عبد الملك الذي خلف أخاه الوليد بن عبد الملك ، بعد عودته الى دمشق . فتروي بعض الروايات أن سليمان بن عبد الملك أمر على اهانة موسى بعد رجوعه من الأندلس . وعلى معاتبته وتغريمه ، حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدي نفسه ، وأنه لبث على تلك الحال حتى توفي في منتهى البؤس والمذلة ، في شمال الحجاز وذلك سنة سبع وتسعين . وكان لمساعي مغيث الرومي فاتح قرطبة ضد طارق بن زياد أكبر الأثر في استدعائه الى دمشق . والرواية الاسلامية لا تحدثنا عن مصير طارق بن زياد بشيء ولا تذكر لنا أين ومتى وكيف توفي ، بل تسدل على نهايته حجابا عميقا من الصمت . أما يوليان القوطي الذي مهد لفتح الأندلس ، فلم تشر اليه الرواية الاسلامية بالمرة ، رغم وجود وثيقة معاهدة الصلح بين طارق بن زياد ويوليان . الذي لولا سفنه ، لما تمكن طارق من عبور الزقاق نحو الجزيرة الخضراء . ولنا في هذه المعاهدة نموذج لاعتدال طارق ولينه وتسامحه : وهي جاءت كالتالي : (نسخة كتاب الصلح) الذي كتبه طارق بن زياد ليوليان القوطي . بسم الله الرحمان الرحيم

من طارق الى يوليان ، انه نزل على الصلح ، وانه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه . وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ، أولادهم ولا نساءهم ، ولا يكرهوا على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تعبد ، وان الذي اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن . وأنه لا يأوي لنا عدوا ، ولا يخون لنا امنا ، ولا يكتم خبرا علمه . أنه عليه وعلى أصحابه دينارا كل سنة . وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلا ، وأربعة أقساط خل ،وقسطي عسل وقسطي زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . كتب فى أربع من رجب سنة اثنتين وتسعين من الهجرة . شهد على ذلك ... الخ . »)

هالنا ما سمعناه من الأستاذ ابن عاشور عن مصير موسى بن نصير وخاصة عن طارق بن زياد الزناتي . انقضت الصاعقة علينا أيضا فى مثل هذا النهار الذي فاجأنا فيه أستاذنا بالشكوك التي تشوب نسبة خطبة طارق اليه ، وعن تفاهة خرافة السفن المحروقة . فكانت كذلك الطامة الكبرى . رفضنا مثل هذه الأقوال وهذه الدروس المضرة والمؤذية . قال كمال : « راح الزناتي الشاوي ، ضحية المؤامرات والدسائس . هردو سليمان بن عبد الملك وزاد عليه مغيث الرومي ... الشاوي يبقى شاوي ... تخناك يا بن نير غاس ! » قررنا تبليغ الجبهة بهذه الفضيحة فتحكم على الأستاذ الخائن بالاعدام . على أنه لم يجرؤ أحد على القيام بتحرير الشكوى . خاصة وأننا نعلم علم اليقين بأن الأستاذ من أبرز المواطنين فى المدينة وطنية وحبا بالوطن وكرها للاستعمار . كتب طالب أبلـه على الجدار :

ليسقط الأستاذ ابن عاشور ! كتب آخر : وليحيا الأستاذ ابن عاشور ! واشتعلت نيران الضغينة في القسم ونشبت الحزازات وتصارعت الحساسيات • ويا لها من طامة كبرى ! وكان ذلك قد حدث في الفترة نفسها ، على وجه التقريب ، التي راح أحد أبناء ضرة أمي يوشي بي الى أبي عن ممارستي كرة القدم سرا • قال أبي : أأنت مدرك لجريمتك ؟ قلت لا ، أبدا • رفع خيزرانته وانهال علي ضربا • قلت : وليضرب ما طاب له ، فمصير كل عظماء الرجال تافه • وطارق بن زياد لم يعرف منه حتى مكان وفاته وموسى بن نصير قد مات شحاذا • قال أبي : قر •• قروالا قتلتك • قلت في نفسي انني لا محالة مائت ••• بل انني مت يوم قال الشيخ الضرير أكتب ، فرفضت الكتابة •

صفراء ثم شهباء حمراء ثم وردية • وتنطلق الرافعة POTAIN في الأجواء كالسهم الناطح عرض السماء الزرقاء • بل تشق طريقها سابحة كالطير المحلق في كبد النسيج السمائي • أرفع رأسي نحو النافذة • أرى خطا أخضر بدأ ينتشر عبر صفرة الفضاء القائمة بيني وبين قرص الشمس المفلطح • وتمر الآلة الحمراء BOUIGHES في ذهاب واياب متواصلين وبدون ما تسرع • ألاحظ أنها لا تحمل شيئا في منقارها • أو بالأحرى ، في هذا النوع من المخطف الذي أراه يتدلى في السماء ، هكذا • تمر الآن الرافعة الحمراء أمام الشمس ، فتخضبها مؤقتا بشيء من الحمرة المنحلة ، المتلاشية ، فيما عضوها الراسخ يبقى جامدا ، مكبلا بحيث أنه يفقد هو بدوره لونه الأصلي ، ثم يرسم ظلا يكاد يكون نهائيا على زجاج النافذة المغلوقة تلك التي تلعب دور الحاجز الرهيف ، الهش والشفاف ، كما أنها تلعب دور المصفاة المغربلة لكل الشوائب المرئية ،

فتتصدى لكل تطفل يمكن أن يعيق العلاقة المثالية التي تربط ما بين قرص الشمس وفتحة العين المتصدية لكل الافتراءات الخاصة بما يدور فى الجو من أحداث تكاد تتغير فى كل ثانية . كما أنها قادرة على التكرار فى كل لحظة . تتراكم نتف من اللطخات السوداء الطفيفة على وجهي كلما مرت سحابة ، فانبهر لها انبهارا . أشعر وكأن خرقة من القطيفة تمرر على وجهي مدة دقائق . واذا بالآلة الاولى (الصفراء من نوع POTAIN) تزيد فى سرعتها ، فتأخذ فى الذهاب والاياب بطريقة سرمدية ، آلية ، متقطعة ، متكلفة الى حد ما . ألاحظ أنها اكتسحت الجو المنصهر أمامي من خلال الاطار المادي الذي يفتح فجوة عريضة فى الجدار : النافذة . وذلك حسبما يفرضه عليها القانون الهندسي والسلم الصوتي الذي لا يمكنه أن يتجاوز ما هو تحت الصفر ، وهذا الصمت يفرضه عزل المادة الزجاجية نفسها . صفراء . شهباء . ومن جديد صفراء . لاحظت أن عدد الرافعات قد ازداد ازديادا هائلا . أما لون الرافعات الجديدة فقد كان أحمر . وقد كانت القديمة صفراء أو ــ بالأحرى ــ تميل الى الاصفرار . اذ أنه من الصعب تحديد الألوان بدقة فى ورشة بناء ما ، نظرا لما يحيط بها من أوساخ وأغبار ومواد تغطي سائر الآلات وحتى وجوه العمال وملابسهم . أما فى الأيام الممطرة ، فلا أكاد أراها ، ذلك أن الضباب يتكاثر فى فصل الشتاء ، ويكون حائلا لا يمكن التخلي عنه قط ، مهما اقتربت أو ابعدت من النافذة . ولعل الآلات الحمراء هي من انجاز مصنع مغاير عن الآلات الأخرى ، ذلك أن اسم الشركة التي تسوق هذا النتاج كان مطبوعا على احدى الصفائح الجانبية (BOUIGHES) . فتتجلى الكتابة بشكل بارز من خلال الحروف اللاتينية الضخمة الحجم وقد طليت بالأزرق القاتم . شاهدت العمال فى عملية تركيب الرافعات

الاضافية ، كانت حمراء ، فوردية عند مرورها أمام قرص الشمس المفلطح تفلطحا أكثر مما اعتادت العين عليه . ولعل الأمر عائد الى تقوس زجاج النافذة وقد ظهرت من خلالها ورشة البناء ، الضخمة والتي لا أرى منها الا رافعاتها المتعددة ، اذ أن المكان الذي أقف فيه فى الطابق العاشر من العمارة حيث العيادة المختلفه الاختصاصات قائمة ، فيما لا يتجاوز الهيكل العام المنجز الى هذا الحد ، والأعمال ما زالت فى طور الانجاز ، الطابق الأول ، فقط فلا يمكن . والحالة هذه . رؤية العمال والاطلاع عن كثب على حالة البناء ، هذا رغم ما أقوم به من مجهودات فى أوقات الفراغ القليلة . أما الرافعات فقد كانت تصعد نحوي بدون أن أحرك ساكنا ، اذ أنني أراها وأنا جالس وراء مكتبي وهي تقتحم الفضاء ، الذي تجزئه النافذة الى مستطيل بارز فتبدو من ورائه هذه الآلات المتحركة ، الغريبة الشكل ، الناطحة السحاب ، المحلقة الهيئة ، المارة بالقرب من النافذة ، حتى ان ظلها يكاد يرسم شظايا على وجه المشاهد (أنا ، فى الحالة الراهنة) الجالس وراء المكتب . فيقع هذا الظل يدي ووجهي وجزءا من نصفي الأعلى . وذلك حسب مدار الشمس اذا ما اقتربت الساعة من الثالثة زوالا . ولعل هذا المشهد ، اذن ، يخلق شعورا بالحرمان فى نفسي لكوني لا أرى من الحركة العامة التي تدور داخل الورشة سوى هذه البنية الفوقية ، السرمدية الحركة . لكن هذا الشعور لا يعتم أن يكون كاملا فلا ينقصه شيء اذ أن الرافعات وهي تجوب أرجاء الكون الحليبي ، تخلق لوحدها جمالا رائعا ، فلا أقوى على اهمالها وتركها والتغاضي عنها ولو ثانية واحدة . وكانت الرافعات تظهر فى شكل طيور ضخمة تسبح فى الفضاء ، متباطئة ، متمايلة ، حذرة ، متحذرة . بل وكنت أراها قبيل الغروب تدخل الذعر فى أسراب الطيور الحقيقية ، فتظهر لمن

يشاهدها وكأنها متكلفة بعض الشيء أو ــ بالأحرى ــ متسرنمة ، متقاطعة الحركة ، اصطناعية • أما الرافعات فتبدو وكأنها طيور حقيقية ، لا مجرد آلات تحركية • ويقوى هذا الانطباع اذا ما رحت أقارن ــ عن غير وعي ــ رشاقة الزرافات (أي الرافعات والحاملات) برعونة الطيور التي تبقى صعبة المنال ، بعيــدة المخرج • فتتغلب على ذهني فكرة عكسية ، وهمية ، مفادها أن الرافعات أسهل منالا وأنني قادر على مسها ، بمجرد رفع يدي نحوهــا •

رأيت مشهدا حربيا على احدى المنمنمات التي كان يحتفظ بها أبي والتي تمثل كلها ما خاض طارق بن زياد ، أثناء فتحه الأندلس والتوغل فيها ، من حروب ووقائع ومعارك • وكان المشهد كالتالي : شيء ما معتم ، بني ، أمغر ، مدم لا يمكن تحديده بدقــة ، تعلوه سماء نحاسية ، أردوازية الدرجات • كانت النيران تلتهم كل ما يحيط بها ، بما فيها السماء الأردوازية الطابع نفسها ، فتنتشر الشظايا هكذا وتتجه صوب الأفق المحمر ، متفرقعة فى الأجواء • كما كانت انعكاسات الحرائق البرتقالية تضطرم جوانب الخيل المصطفة على عدة خطوط ، فيظهر البعض منها متصافنا والآخر متزمهرا • وراح الرسام يغالي فى سطوة الحرب الضروس ، فأشار الى أعناق النسوة المشرئبة وأعينها الخارجة من محاجرها وقد أخذ الفزع والهول منهن مأخذهما ، فيظهرن (النسوة) هاربات ، هائجات ، مائجات تحت تأثير الخوف والهلع • كما كن يجررن أبناءهن المتفككة أعضاؤهم ، المتهولة أوجههم ، المتهشمة رؤوسهم • كانت الحرب رهيبة • يدخل أبي علي فيجدني غارقا فى مشاهدة المنمنمات الفظيعة ، فيصفعني صائحا فى وجهي : أنت كسول ، لا تعرف من الأمور الا مشاهدة الصور ••• أين

كتاب الترجمة آين نص ابن خلدون ؟ هل انتهيت من ترجمة خطبة طارق ؟ والرياضيات $(x^3 + 3x^2 - 3x - 1 = 0)$
هل وجدت حلا لهذه المعادلة ...؟ لا شك أن كمال قد فك رموزها ... أما أنت فمتقاعس ، التقاعس هو عدوك اللدود .. ترجم يا أيها الكسول . أيها البخيل (من بخل بجهده فكريا كان أو عمليا) أترجم اذن . كان يرفض أن ألجأ الى المنجد . قلت في نفسي : لماذا سموه منجدا أليس لنجدة التلاميذ ؟ يقول هو : ممنوع القاموس ... كل شيء في الرأس لا في الكراس . كما يطالبني بفك رموز المعادلات بدون اللجوء الى الورق واستعمال القلم ، فيطالبني بفكها ذهنيا . يقول : أما تعرف فتفكها وأما لا . الاستنجاد بالورق والقلم ، مجرد تضييع وقت . أقول :

$$(x^3 + 3x^2 - 3x - 1 = 0)$$

يمكن تلخيصها كالتالي : $(1)^3 + 3(1)^2 - 3 - 1 = 0$

يتدخل في الموضوع ، يستأنف $(x) - x^3 + 3x^2 - 3x - 1$

ثم يترك الرياضيات . يقول : كفى . لقد فهمت . البقية بسيطة : Un jeu d'enfants ! . ترجم . بدون قاموس ... أحاول اقناعه بأن القاموس خلق لهذا الغرض . يرفض . يستطرد هو حول المنجد . يقول : هل تعرف من صنف لسان العرب ؟ أقول : محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الانصاري الافريقي ثم المصري جمال الدين أبو الفضل ابن منظور كان ينسب الى رويفع بن ثابت الأنصاري ولد سنة 630 هجري في المحرم وسمع من ابن المقير ومرتضى بن حاتم وعبد الرحمان بن طفيل ويوسف بن المخيلي وغيرهم وعمر وكبر وحدث فأكثروا عنه وكان مغرى باختصار كتب الأدب المطولة فاختصر الأغاني والعقد والذخيرة

ونشوان المحاضرة ومفردات ابن البيطار والتواريخ الكبار ...
فيقاطعني قائلا : فيه الكفاية . فلا أتوقف ، استفزازا . فأستأنف
الكلام عن سيرة ابن منظور الافريقي : وقد ترك بخطه خمسمائة
مجلد وجمع فى اللغة كتابا سماه العرب جوده ما شاء ورتبه
ترتيب الصحاح وهو كبير وخدم فى ديوان الانشاء طول عمره
وولي قضاء طرابلس المغرب وكان عند ... قاطعني ثانية قال :
اخرس ، أتتحداني ....؟ ترجم بدون منجد ولا قاموس والا
هشمت رأسك تهشيما . أ أنت حمار كي تستعين بالقاموس ؟
لم أتجرأ على الاستطراد فى سرد سيرة ابن منظور واضع لسان
العرب . وأنا فى قعر داره . لكن أينما ذهبت ، وأنا كهل وجدت
رائحة الموت تساورني . رائحة موتها هي (أمي) ورائحة الأموات
القوطة والجلالقة والفرنجة . وتختلط الروائح ويختلط الأموات
(منهم أولئك الجنود الذين ذبحهم شمس الدين وكمال وزمرة
من الأصدقاء) (لم أعد أذكر أسماءهم) . ولكن ما علاقة
الجنود الفرنسيين بالمقاتلين الافرنج الذين قاتلهم طارق بن زياد ؟
أخذت أترجم ترجمة حرفية : وأجاز طارق بن زياد البحر سنة
اثنتين وتسعين .

أجاز : Prit

طارق بن زياد : (طبعا لا فائدة من ترجمة هذا الاسم العلم ..)

البحر : La mer

سنة : En l'an

اثنتين وتسعين : Quatre vingt douze

ثم : باذن أميره موسى بن نصير فى نحو ثلاثمائة من العرب .
وانتهب معهم من البربر زهاء عشرة آلاف فصيرهم عسكرا .

باذن أميره : Avec l'assentiment de son chef :

موسى بن نصير : (أيضا لا فائدة من ترجمة هذا الاســم العلم •••) فى نحو : En compagnie d'environ ثلاثمائة من العرب Trois cents guerriers arabes
وانتهب : Il recruta. Il enrôla. Il leva يغضب أبي : يقول : لا أريد كلمتين ولا ثلاثا • كلمة واحدة فقط • تلك قواعد الترجمة الحرفية • كلمة كلمة • تماما • مثل السن بالسن والعين بالعين • يا حمار ! أنا أعرف أنك لا تعير هذه الأمور أي أهمية • أعرف أنك ضد كل هذه الفتوحات الباطلة كما تقول أنت ويقول أترابك بقيادة ذاك المزور الأعظم الأستاذ ابن عاشور ••• سأقابله فى يوم من الأيام • انه يسمي هذا الفتح المبين بالاستعمار القديم ••• يا له من خبيث زنديق • أعرف انك ضد فتح الأندلس من قبل طارق بن زياد ••• يا للمخرب • سوف يعاقبك الله على كفرك هذا المدقع ••• انك لجاهل ••• لا تعرف شيئا ولا تفقه شيئا لا فى العربية ولا فى الفرنسية و لافى الانجليزية ولا فى اللاتينية ولا فى الرياضيات ($(x^3 + 3x^2 - 3x - 1 = 0)$.) الطول والخسارة كسلوم النصارى ••• حتى صاحبك كمال مثلك ، رغم شطارته فى الرياضيات ، انه زنديق ••• لا يعرف يعشق الا الفرنسيات •• تابع ••• ترجم ما تبقى من النص • أذكر أمي • أتلوع لذكراها • أذكر رائحتها وهي تنظر من وراء سياج النافذة الوسطى حيث الوردة المتهيج نموها ، بزهورها الباهتة اللون ، ذات لون وردي اصفهاني (ROSE - THE) ورائحة المنزل أيضا • أسمعه يصيح : ترجم • فصيرهم عساكر ونزل بهم جبل الفتح فسمي جبل طارق بــه • رائحة موتها • هل يغسلون أيضا شعر الأموات ؟ هل يستعملون الغسول المنقع فى ماء الورد ؟ مثل الــذي كــانت تستعمله • أمي طاهرة • الغسول المرقد فى مــاء العطرشيــة

والخزامى ؟ ترجم يا خبيث . أسكت . ينتظر هنيهة ثم يستأنف الترجمة الحرفية : وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصين . ثم يترك ، منهزما . يفهم انني أماطل فأستفزه استفزازا . يقول : تتمسخر بي فى قعر داري . هل غسلوا شعرها أيضا ؟ وابطيها ؟ أمي عفيفة . أتركه يلغو . يقول : أنت حوتة مطلية بالصابون ... لا أعرف من أين أمسكك . أنت دائما فى فرار (مفر ، مكر ، مدبر ، مقبل معا كجلمود ...) وهروب . ماذا يعنيه هو من أموري المدرسية ؟ وهو يعلم أنني تلميذ نبيه لا لشيء الا لشدة ما كنت أخاف من عقوباته الرهيبة . مرغم ، ليس الا . أجبرت على مثل هذه البطولات . كمال شاهد عيان على ذلك (وهو — كمال — يقول مغتاظا : ما به حذائي ؟ انه من الطراز الرفيع . صنع فى ايطاليا . لا تغرنك نفسك يا ولدي ... والكرافات ما بها ؟ من الحرير الخام . هدية من احدى السيدات العاشقات . موش بولولو متاعكم ... سيدة شريفة ذات حسب ونسب وجاه ومال . أقول : وهي أيضا مثقفة ، علامة ، براقة ، ناصعة الجمال ... كمانا هذا يا كمال . لكن ربطتك قبيحة ومعياطة . يقول : معياطة ؟ من أين لك هذه الكلمة ؟ أقول : آفة الترجمة الحرفية ! CRIARDE . ماذا تقول ؟ تنتابه نوبة من الضحك . انك داهية أنت يا طارق . والله أبوك عظيم ... ما اعليش . خل النحو جانبا واو برهة من الزمن يا ولدي ... اسمك على جسمك يا طارق . رغم عقدتك بالنسبة الى الزناتي الشاوي ... لكن لنعد الى خرفاننا ! الترجمة الحرفية ... أليس كذلك Revenons à nos moutons ! ما بها ربطتي ؟ أقول : معياطة معاصة مزعاقة ! CRIARDE أما انها من حرير خام فهذا لا يهم . حكمت عليك المحكمة بسوء الذوق المؤبد ، لأنك بليد . وهذا

الحذاء ••• أسود ••• وأصفر ••• يقول : انه هدية من السيدة المحترمة زوجة الحاكم العام • أقول : هل جننت ؟ أتصرح بأنك اقتنصتها ؟ قال : طبعا ، لقد سقطت فى شراكي ، يا مغفل ••• الحذاء ••• أسود ••• وأصفر ••• يقول : انه هدية من السيدة ولم لا ؟ انها لبقرة حلوب • قلت : خلاص ••• سوف تعدمك الجبهة اعداما • قال : لكن الأمر لم يتم الا باذنها • (باذن أميره موسى بن نصير) هل تتهمني بالخيانة ؟ اني أنا وطني غيور • بلاش دعارة يا ولدي ! قلت : كل شيء ما عدا هذه الخرافة ••• لا أصدق ••• مستحيل • قال : ألم تأت السيدة الفاضلة لزيارة المدرسة منذ شهر ؟ قلت : أجل ••• قال : اذن ؟ نظرة فابتسامة فسلام فلقاء • وتمت كل الأمـور بمصادقـة واذن ورعايـة الـ F.L.N. • قلت : اذن انها خطة رائعة • لابد من أن تكون من وراء ذلك حسابات • اضرب خمسة يا كمال • أنت سيد الثوريين ••• والله فان ربطتك لرائعة وحذاءك لروعة فى الصناعة اليدوية الايطالية ••• حكمت المحكمة لك بحسن الذوق ••• سوف لن يستأنف فى هذه القضية • اضرب خمسة يا كمال •) التخاذل أمام الغطرسة الأبوية ، اذن ، ولم يكن يهمني شيء ما عدا كرة القدم • كنت قد انخرطت سرا فى فريق المولودية • وشى بي أحد أبنائه من الزوجة الثالثة : قمر • قلت : سأنتقم من ذاك الذي خدعني • ومن أمه كذلك • وسينفذ !

ما كنت لأكن للعم حسين محبة كبيرة • كان هذا الرجل هو الآخر اختصاصيا فى الوشاية العظمى • كان يأتي الى المنزل ، متبهنسا . بغية التجسس فيقول : مسكين أبوكم لم يسعفه الحظ مع النساء • أما أنا فالحمد لله : زوجتي وردة (كان قد لقبها : نانا بعد أن شاهد فيلما فرنسيا رديئا كانت البطلة فيه تحمل هذا الاسم المتكلف والمتمغرب •) أعز ما لدي فى الدنيا • لكنني لم

أنس يوم جاء العساكر الى الدار وباغتونا • قالت أمي : جاؤوا على غرادة • كيف يمكن ترجمة هذه الصورة وهذا التعبير الشعبي يا كمال ؟ لا يمكن ترجمته • اقتحم الجند المنزل وصعدوا الى السطح • اكتشفوا الشعارات التي كنا قد كتبناها أنا وشمس الدين W. F.L.N. Abat la Fransse !

كاد العم حسين يغمى عليه لفرط ما خاف • بدأ يتذرع بعدم المعرفة الى الضابط فيعتذر • قال : ها هما الجانيان ••• حضرة القبطان • يمكنك جرهما الى السجن • يا لها من مواقف فاسدة • أما الأفراد الآخرون فقد اختبأوا تحت الأسرة • ما عدا أمي • كانت شجاعة أمي • قالت للعم : اسكت يا رجل ، انها الحرب ••• واش رايحين يعملوا ؟ يقصون رؤوسنا ؟ أهدأ ••• ولملم أعصابك ••• شمس الدين تفل على الضابط • صفعه هذا يمنة ويسرة • لم يتحرك له ساكن • كان متعودا على الضرب وأبوه كان يتفنن فى تعذيبه واهانته ، دون الآخرين • حدق شمس الدين فى الضابط بغضا وكراهية وحقدا • قال العسكري : لو لم تكن صغيرا ، لأرديتك أرضا برصاصة فى دماغك الكبير • أجبرونا على غسل الشعارات المكتوبة بالطباشير الصفراء ، على أرضية السطح W. M.O.C. L'Algérie VV. كان العم حسين يرتعد خوفا • ذهب فى اليوم التالي الى مركز الجيش الفرنسي وتبرأ من أعمال ابنه الماضية والحاضرة والمستقبلة • وبعد أيام أعدنا الكرة • استعملنا هذه المرة طباشير حمراء • كرر شمس الدين الخطأ الاملائي نفسه • كتب Abat la Fransse.

قلت : ما بك أنت حمار الى هذه الدرجة ؟ قال : ولماذا تريد أن أكتب كلمة فرنسا كتابة صحيحة ؟ قلت : الحق معك ، انك لداهية ! سأهديك مثلوجة •

فأي نوع من الأنواع تريد ؟ قال : شيكولاتا فريز . قلت : حاضر .. تؤمر ! غدا سنذهب الى حانوت المثلجات . لم أجرؤ على مصارحته في قضية كلمة ! ABAT الخاطئة من حيث الكتابة. قالت أمي : هذه المرة سيسوقوننا كلنا الى المشنقة . بس فينا العمة فاطمة المسكينة التي تجاوز سنها المائة . تساءلت عمن ترجم لها الشعارات ، وهي لا تفقه من الفرنسية حرفا ... وأدخل المدرسة في اليوم التالي وأقطع المسافة التي تفصل بين البهو العتيق المبني على الطراز المعماري التركي بأقل من ثانية . بسرعة البرق أقطعها . أقطعها راكضا وأنا لي ساقان طويلان (الطول والخسارة كسلوم النصارى .) لأنني كنت أخاف من ردود فعل أستاذ اللاتينية المتحمس لكل ما يمت من قريب أو من بعيد الى الحضارة الرومانية . اذا متوا يوما فموتوا علماء لا جهلة . ترجم يا خبيث . هل بجهلكم هذا سوف تخرجون فرنسا ؟ لماذا هذا التأخير ؟ سوف تعاقب . ترجم ... سينفذ ! :

At Jughurtha, dum

Sustentare suos et prope jam adeptam victoriam retinere cupit ; cir cumventus ab equitibus dextra sinistraque omnibus occisis solus inter tela hostium erumpit :

(كان يوغرطة يحاول تقديم المساعدة الى جنوده والاحتفاظ بنصر كاد أن يكون مبينا . لكنه وعلى الرغم من محاصرته من قبل الخيالة وبعد أن شاهد جميع عساكره ساقطة أرضا ، يمنة وشمالا . ينطلق لوحده ويحصل على شق طريقه وسط أسهم أعدائه .) فيردد الاستاذ : تلك احدى حضاراتكم . ان كتب لكم الموت ، فموتوا علماء على الأقل ! At jugurtha dum Sustentare... لكن يوغرطة وهو يحاول مساندة ... ويغضب الاستاذ من جديد : لا ، لا . هذا حشو .. بل لعلك تريد استفزازي . يا وقح ، يا قليل الأدب . لا تعرفون الا الحرب ، الحرب .

يسلنكم أن توشوا بي الى جبهتكم • لا أخاف منها • لست جبانا أنا • لقد عشت مهالك الحرب قبلما تولدون Suos et prope الأهــل والمقــربين اليــه • الترجمــة حــدس ، مــــوش Charabia (شرى وبيع) أعلم أن الكلمة هذه عربية الأصل ، يا ولد ! استلبوها منكم •• •لكن لنعد الى الترجمة • أقول لكمال : لابد أن تكتب تقريرا عن هذا الرجل • وهل نحــن لا نعلم أن الحضارة الرومانية هي لنا ؟ لكن الحمار ، لا يقول لماذا كان يوغرطة يقاوم القيصر ماريوس • لابد من كتابة تقرير • ويرد علي كمال : أنت أبله ! انه يرأس خلية الأساتذة السريه . وهو من أعضاء الجبهة المرموقين ، فقط يتظاهر ويتمظهر بعداوته لها ، يا فاطن •

كان لأبي القرار والطابع • كان يقول : هذا الولد أمانة فى عنقك • لمحته المؤدب الضرير يدنو وينفخ فى سماق اللوح ويفرش لي حصيرة جديدة ، مجاملة بأبي ، لاغرائه • أخذ يصوغ نفي من رنين الحرف • ألم تبدأ الحرب بعد ؟ أين طفولتي اختبأت ؟ وكيف يمكن كمال أن يقص عن غسق وهو الذي كان يصاحبني الى باب الكتاب ، بدون الدخول اليه • يتركني • فريسة بين مخالب الشيخ الضرير • دخلت الجامع السفلي وعند الصحن كان الضوء منحدرا وجلبابي يلف الركبتين • لمحته يختار لي قصبا ثم يقول : أكتب • كتبت الحروف والجروح والكلمات والآيات والسورات والأموات والشعارات المنقوشة على الجدران وحتى على سطح المنزل F.L.N. Vaincra ! W. M.O.C. يقول : أكتب : ويسألونك عن المحيض قل هو أذى • رفضت أن أكتب هذه الآية • ضربني الشيخ الضرير ضربا مبرحا • قال أبي لا تحاسبني الا بالجلد والعظم والدم • سالت قدماي دما خاثرا •

لم أنس لون أصابعي الملوثة بالصماق والطباشير الصفراء (اصفرار الرافعة المغروسة رجلها فى أعماق الأرض والماسح ذراعها المتحرك آفاق السماء •) كتبت على الورق كلمة Potain وقد مضى على حادثه الكتاب هذه أكثر من ثلاثين عاما • كان يومئذ التاريخ يتسلل فى طيات جسمي السمين الربيل الحادر ولم أكن لأفهم بعد ما فيه من كثرة التشعبات والتفرعات • كان رأسي محشوا قرآنا ونحوا عربيا وفقها اسلاميا وصرفا وفرنسية ولاتينية ومعادلات من الصنف الثالث $(x^3 + 3x^2 - 3x - 1 = 0)$.
كيف تسنى لي بين كل هذه المواد أن أتدبر أمري ؟ هتف الأطفال ساخرين : بابا سمينة وكال الطمينة يا بوطي يا طوطي ! (Bud Abbot) قلت سأذكر يوما هذا الحنين الطفولي والحرب الرهيبة والمتعة الجامحة النابعة من أصل الخوف ، من سراديب الخوف • يقول الشيخ الضرير : ذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين : (وأجاز طارق البحر •••) سوف لن أنسى قط • كانت الأنامل مصقوعة والكلمات مشتتة • يقول الشيخ : اجلس • أبلع الدمعة المذروفة • تقول أمي : لا تغضب هذا مؤدبك • كان الضوء منحدرا من أعلى الزيتونة • يملي صاحب الكلمات فيملأ الجو غموضا هائلا ونيرانا ملتهبة ـ(وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوي التيجان ونساء مرجومة وأمهات محيضة • تقول أمي : لا تغضب سوف تفهم كل هذه الأمور فى الكبر ••• لو كان جدك حيا لشرح لك كل هذه القضايا وان كان شيوعيا • نسيت أصابعي بين الذهول والابتهال • كان المؤدب يصوغ أذني من رنين الفاجعة • أين أمي ؟ طفولتي اتسبت الى محنتها • هذا الجسم الطفولي المتفايض سمنة ، أترى ، أفلا يشفق أترابي عليه ؟ : بابا سمينة بطنو معمر

بالطمينة . وفى الكبر كتبت عنفي فى انغراس الشوق والصلصال ورائحة الغسول المنقع فى العطرشية والخزامى والصمغ والدم . لم أنس أبدا .

رفعت رأسي . كانت الرافعة الصفراء مستمرة فى حركتها السرمدية . أخذت وصفة بيضاء . كتبت عليها : أيها الناس : أين المفــر ؟